التربية القرآنية

في

وصية لقمان

تأليف

سماحة السيد حُسين الصدر

-دام ظله-

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين

والصلاة والسلام على نبيّنا محمد

وعلى آله الطيبين الطاهرين

وأصحابه المنتجبين

الشباب هم زينة المجتمع، هم قوام المجتمع، هم رجال المستقبل.. هم الأقدر على حَمْل الرسالة الإلهية.. هم الأقدر على حَمْل الأمانة التي أودعها الله ﷻ في الإنسان.. هم الأقدر فكرياً، لأنّهم متفتحون جسمياً ولأنّهم أقوياء...

ولهذا نرى الإسلام عنى بالشباب عناية فائقة وخَصَّهم برعاية معينة وتَخَاطبَ تخاطباً خاصاً معهم، ملتفتاً إلى طبيعتهم، وإلى ظروفهم، وإلى المستوى الذهني والعقلي والفكري الذي يعيشه الشاب.. والشباب هي فترة وسطية بين الطفولة والرجولة، فالطفولة تبدأ من الولادة وحتى الثانية عشر.. ومرحلة الشباب تبدأ من بعدها إلى العشرين أو الحادي والعشرين وحتى الثاني والعشرين، وبعدها تبدأ مرحلة الرجولة والتي تنتهي بالشيخوخة...

ومرحلة الشباب من بعض الجهات أصعب المراحل!.. لأنها تكون خليطاً بين مرحلة الطفولة ومرحلة الكبر، تكون في مرحلة الشباب حالة امتزاج بين العقل والسلوك الذي كان يعيشه في مرحلة الطفولة، وبين ما ينبغي أن يكون عليه وهو رجل.. فهناك رواسب كثيرة في داخله من طفولته، وهناك محاولة لإن يُقلِّد الكبار والرجال في تصرفاتهم...

إذن هذه المرحلة تجمع بين متناقضات: بين حالة الطفولة وحالة الرجولة، هذا الطور يسحبه إلى شيء وذاك الطور يسحبه إلى شيءٍ آخر، تلك المرحلة تفرض عليه سلوكاً معيناً والمرحلة الأخرى تفرض عليه سلوكاً معيناً آخر، فصارت هذه المرحلة فيها شيء من التعقيد!... ولأجل ذلك نرى أنَّ الإسلام أعطى رعاية خاصة فائقة للشباب، ولأجل هذه التداخلات فيهم سواءاً من ناحية فكرية نظرية، أو من ناحية سلوكية عملية، جعل لهم منهجاً معيناً وتعاملاً خاصاً، وأول سمات هذا التعامل الخاص:-

-يخاطبه بحنان وحب وتقدير!.. يخاطبه وهو يشعره بوجوده...

ونرى القرآن يُغذّي الشباب التغذية الإلهية ويربّيهم على الخُلُق الإلهي ليُعدَّ منهم إعداداً سليماً لمعنى العبودية التي يجب أن تتوفر في الإنسان وأن يُعدَّ منهم إعداداً سليماً لمعنى خلافة الإنسان في الأرض. فيُعطيه الأسس أولاً كيف يكون إنساناً.. وثانياً كيف يكون عبداً لله ﷻ .. وثالثاً كيف يكون الخليفة في الأرض.. وجاءت كل هذه التربية الإلهية والتوصيات الربّانية عن طريق موعظة لقمان لابنه، (لقمان) الذي تقول الآية الكريمة/12 من

سورة لقمان عنه:-

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشكُر للهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنيٌّ حَمِيدٌ﴾

فالله ﷻ أعطى الحكمة للقمان، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، والحكمة رأسها مخافة الله كما ورد في الحديث الشريف:-

﴿رأسُ الحكمة مخافة الله﴾

ومخافة الله تندمج فيها الإنسانية والعبودية والحب والطاعة لله والإنصياع والإستسلام لله وخلافة الإنسان في الأرض...

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾

يعني آتيناه الطريق الذي يوصله إلى الله ﷻ وعَبّدنا له هذا الطريق وسهّلنا له هذا الطريق، أعطيناه النور الذي يكون من قلبه إلى ربه، ومن روحه إلى خالقه ومن نفسه إلى سيده ومولاه.. الحكمة هي التي تعمّ كل ما في الوجود، لأنَّ الإنسان يتفاعل مع كل ذرات الوجود، كلٌ يتفاعل معه بحسبه، فهو يتفاعل مع نفسه، وهو يتفاعل مع الآخرين ومع مجتمعه ومع أهله، ويتفاعل مع النبات ومع الحيوان ومع الجماد، ويتفاعل مع الهواء، ومع السماوات ومع الأرض... إذن فالحكمة تشمل الوجود كله والإنسان الذي هو خليفة الله في الأرض يتفاعل مع كل هذا الوجود ضمن الحكمة الإلهية، فهو جزء لا يتجزّأ من هذه السلسلة المترابطة.. وبعد أن أعطى الله ﷻ الحكمة للقمان، أخذ هو يعطيها لإبنه ضمن الصياغة القرآنية سواء كانت في الجانب الفكري أو كانت في الجانب اللفظي والعملي لأجل أن يُعدّه إعداداً كاملاً ولأجل أن يجعله عبداً لله بكل ما في هذه الكلمة من معنى...

وصية لقمان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَينِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيكَ إِلَيَّ المَصِيرُ وَإِنْ جاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنيَا مَعرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعمَلُونَ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَردَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَو فِي السَّمَاوَاتِ أَو فِي الأَرضِ يَأتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالمَعرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزمِ الأُمُورِ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمشِ فِي الأَرْضِ مَرَحَاً إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصوَاتِ لَصَوتُ الحَمِيرِ﴾

سورة لقمان/آية (13–18)

في رحاب
وصية لقمان

الوصية الأولى
تربية العبودية

﴿وَإِذْ قَالَ لُقمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّركَ لَظُلمٌ عَظِيمٌ﴾

نفهم من هذا النص القرآني الشريف والذي يبدأ بكلمة ﴿يَا بُنَيَّ﴾ :-

إِنَّ الأب يجب عليه أن يعظ ابنه في طفولته وشبابه، أن يعظه ويرشده ويغذّيه التغذية الفكرية السليمة والتغذية الأخلاقية الصحيحة، أن يغذيه من كل الجوانب فكراً وسلوكاً...

فمن مهمات الأب تجاه ابنه:-

1-أن لا يتركه سُدى...

2-أن لا يهمله...

3-أن لا يجعله وبالاً على نفسه أولاً، وعلى أسرته ثانياً، وعلى مجتمعه وأمّته ثالثاً...

وإنما لابد أن يعظه ويوجّهه، فهو مسؤول عنه ولا يقول:-

(إِنَّ ابني كبير وهو من الشباب، وهو يعرف مصلحة نفسه، وإنَّ ابني له من الثقافة والدراسة ما لا يحتاج معه إلى موعظة)

فهذا ليس بصحيح، وإنمّا الله ﷻ يؤكد أسلوب التعامل بين الوالد وولده، بأن يعظه ويرشده، فالإبن محتاج إلى موعظة أبيه وإرشاده كما هو محتاج إلى عطفه وحنانه ورعايته، ولكن هذه الموعظة لابد أن تتم:-

1-بالقول والعمل، فيجب أن يكون الأب متّعظاً قبل أن يكون واعظاً!..

2-يجب أن تتم الموعظة مع اللين والرفق ومع الكلمة الطيبة اللطيفة المؤثرة...

وأول هذه الكلمات الطيبة هي ﴿يَا بُنَيَّ﴾ وفي هذه الكلمة أمور عديدة:-

الأول:– إنَّها تَدلُّ على أنَّك ﴿يَا بُنَيَّ﴾ جزء مني..

وعندما يخاطبه بهذا الخطاب يكون مؤثّراً، وعلى هذا الأساس يقول الإمام أمير المؤمنين لولده الحسن عليه السلام :–

﴿يَا بُنَيَّ وجدتك بعضي، لا بل وجدتك كلي، فلو أنّ شيئاً أصابك أصابني﴾

تُعطينا الكلمة معنى الجزئية (إنّك جزء مني) وهذا يعطينا معنى الإنشداد والإرتباط الوثيق بينهما (بين الإبن وأبيه، وبين الأب وابنه).

الثاني:– أنّها تعطي معنى الشباب له، أي أنّه خرج من طور الطفولة بقولك ﴿بُنَيَّ﴾ ودخل بطور آخر وهو طور الشباب، ولهذا يريد أن يتحدث معه وهو شاب، وهذا يعطيه اعتداداً بنفسه وقيمة لها..

الثالث:– تعطي الكلمة –كما يقول علماء النفس– معنى الحُنوّ والمحبة ومعنى الرأفة والشفقة، ولهذا نرى القرآن الكريم استعمل كلمة ﴿ بُنَيَّ﴾ ..

–تُرى ما هي أول موعظة يعظها لقمان لابنه؟..

–وما هو الإرشاد الإلهي الأول الذي يصدر من القرآن الكريم في تربية الشاب بأول موعظة تدخل عقله وهو في طوره الجديد ومرحلته الحاضرة (مرحلة الشباب)؟..

أول موعظة يقولها لقمان لابنه وهي في سورة لقمان، آية/13:–

﴿لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾

يأمر لقمان ابنه بعدم الإشراك بالله عزّ وجلّ غارساً في نفسه التوحيد الكامل لله وعدم الإشراك به، مُجلِّياً الفطرة التي أودعها الله عزّ وجلّ فيه من الإيمان بالله وتوحيده وقائلاً له:–

–لو أشركتَ، فإنّك تظلم نفسك..

–ولو أشركتَ، فإنّكَ تظلم أهلكَ..

–ولو أشركتَ، فإنّك تظلم أمّتك..

لأنّك لو أشركتَ تكون بعيداً عن قيم الله عزّ وجلّ، وإذا كنتَ بعيداً عن قيمِ اللهِ، كنتَ وجوداً مضرَّاً خالياً من القيمِ الإلهية!.. وقد علّل لقمان لابنه لزوم عدم الإشراك بقوله من سورة لقمان، آية/13:–

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾

وهذا من أروع ما يعطينا الإسلام وعن طريق القرآن الكريم في أسلوب التعامل مع الشاب فكرياً وسلوكياً..

فإنّك عندما تتحدث مع الشاب، أعطه الحكمة من حديثك، ولهذا عندما يتكلم الآباء مع الشباب من أبنائهم ويعظونهم ويرشدونهم إلى الإستقامة والصلاح والتقوى والأخلاق، فإنّه لابد أن تكون هذه الموعظة وهذا الإرشاد مصحوباً بشيءٍ من التعليم والحكمة، بشيء من إيضاح السبب وليس أمراً فحسب..

لأنّ الشاب في هذا العمر يرى لنفسه وجوداً ويرى أنه يفهم أشياء كثيرة!.. فإذا تحدثت معه مبيّناً له الحكمة والسبب، عند ذلك يحترم كلامك أكثر ويدخل في قلبه وعقله أكثر، ويتجسّد بسلوكه وتصرفاته أكثر.. ولهذا نرى أنَّ لقمان عليه السلام عندما بدأ يعظ إبنه، أمَرَه بعدم الإشراك وأعطاه السبب، هذا الشيء أهَّلَهُ لإن يعطيه الأكثر من التعليمات العملية والسلوكية والأخلاقية...

لقد أعطى لقمان الجانب الأساس لابنه وهو عدم الإشراك، وذلك بأن لا يُشرك بالله لأنَّ الشرك ظلمٌ عظيم، لأنَّه ظُلْمُ الإنسان لنفسه!.. فهو سيعيش حالة القلق والحيرة واللاوجود، ولذلك أول ما يظلم:- يظلم نفسه، ويكون قد اعتدى على ربّه وخالقه وسيده ومولاه، فلا يمكن أن يكون وجوده وجوداً زائداً أو ناقصاً، لأنَّ كل شيء عنده بمقدار.. فعندما لا يلتفت إلى إيمانه وفطرته وإلى أنّه جزء لا يتجزّأ من الوجود لا يمكن أن ينفصل عنه، فقد ظَلَمَ الوجود كله ولهذا يقول في سورة لقمان، آية/13:-

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾

الوصية الثانية
نظام علاقة الأبناء بالوالدين

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنَاً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَينِ أَنِ اشكُر لِي وَلِوالِدَيكَ إِلَيَّ المَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبهُمَا فِي الدُّنيا مَعرُوفاً﴾

بعد أن ركّز لقمان الإيمان والعقيدة (أو ما نستطيع تسميته بالبُنية التحتية وأكّد عليهما)، أعطى أول مصداق للإيمان والعقيدة وهو:- تَحَمُّل الوالدين والبرّ بهما مع ما فيهما من مشقة ومتاعب.. فقد أعطاه شيئاً من السلوك، وهو علاقة الأبناء بالوالدين وما يجب عليهما مُذكّراً له ما عانوه في سبيله، وهنا إشارة أخرى إلى أنَّ الأمر مصحوب بالتعليل عندما أمَرَه ووصّاه بوالديه، علّل له هذه الوصية بقوله تعالى في سورة لقمان، آية/14:-

﴿حَمَلَتْهُ أُمّهُ﴾

ذَكّره بموضوع الحمل وما تعاني الأم في هذه الأشهر من تعب ووهن ومشقة نتيجة الحمل والرضاع وما شابه ذلك، وما يعانيه الأب من مسؤولية كبيرة.. ثم انتقل لقمان لِيُنَبّه إبنه وبالتالي يُنَبّه كل الشباب إلى مسألة مهمة:-

ففي صدر الإسلام أسْلَمَ الكثير من الشباب وكان آباؤهم كفّاراً، وفي كثير من الأزمنة التي أعقبت صدر الإسلام، نرى أنَّ الكثير من الأبناء مستقيمون والآباء بعيدون عن الله ﷻ...

ولهذا فإنَّ الآية التفتت إلى هذه الحالة الإجتماعية وأرادت أن تعطي العلاج إلى الشباب في كيفية التصرف، وكيفية العلاقة ما بينهم وبين آبائهم.. فكأنَّ الآية الأخرى أثبتت أو أرادت أن تُلفت النظر إلى وجوب موعظة الأب إلى إبنه، وهنا تريد أن تُلفت نظر الإبن الشاب إلى أبيه حيث تقول الآية/15 من سورة لقمان:-

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطْعِهُمَا﴾

ويأتي الحُكم التربوي هنا، في الآية/15 من سورة لقمان:-

﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنيَا مَعْرُوفاً﴾

فإذا كانا مشركَين -كما كانوا في صدر الإسلام- أو كانا بعيدَين عن الله -كما يكون ذلك في كثير من الأزمنة- وينهون الشاب عن عبادة ربّه، عن صلاته وقرآنه، عن صيامه، عن حَجّه وزكاته يقول له كما في الآية/15 من سورة لقمان:-

﴿فَلا تُطْعهُمَا﴾

وكما جاء في الحديث:-

﴿لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق﴾

ولكن أيُّها الشاب لابد أن تبقى بعلاقة حسنة معهم، بكلمة طيبة، وادعُ لهم بالمغفرة والرحمة كما قال الله ﷻ في سورة الإسراء، آية/24:-

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾

إذن فالمصاحبة بالمعروف ضرورية...

الوصية الثالثة
ضرورة القدوة الحسنة

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

الإنابة: هي التوجه إلى الله ﷻ والرجوع إليه في كل صغيرة وكبيرة، ولهذا أمَرَ لقمان إبنه بأن يتّبع سبيل من أناب إلى الله ﷻ أي لابد أن يكون أولئك الذين أنابوا إلى الله ﷻ قدوة لك أيها الشاب...

لابد أن تجعلهم أمامك وتقتدي بهم، تجعلهم نموذجاً صالحاً جميلاً مشرقاً!.. لكي تصل إليه وتحذو حذوه وتسير على خطاه حتى تتكامل نفسياً، فكرياً، عملياً كما تكاملوا.. ولكي تسلك كما سلكوا.. ولكي تنيب كما أنابوا.. ولكي تجلي فطرتك كما أجلوها..

ولكي تُعقّم نفسك كما عقّموها.. ولكي تُطهّر روحك كما طهّروها.. ولكي تتوجّه بكُلك إلى الله كما توجّهوا.. ولكي تعود إلى الله وتتوب وتستغفر، وتُلحُّ بالتوبة، وتُلحُّ بالإستغفار كما تابوا واستغفروا وعادوا.

فالإنابة هي الرجوع إلى الله مع الإلحاح والإصرار.. هي الرجوع إلى الله مع إيمانٍ راسخٍ وعِشْق قويٍّ ووَلَهٍ إلى الله، وطاعةٍ لله، وبرمجة فكرية وسلوكية متكاملة ضمن البرمجة الإلهية...

هذا أمر إلهي وموعظة قرآنية إلى الشباب الأعزاء بأن يتّبعوا القدوة الصالحة الحسنة.. والقدوة الصالحة لها إيجابيات:-

1-عندما يرى الشاب هذه القدوة الصالحة، فهو يرى الإيمان والإسلام والعبادة والأخلاق، يراها سلوكاً وليس فكراً..

والإنسان عندما يرى هذه المفاهيم النظرية والعملية متجسّدة في شخص أو أشخاص، يكون لها أثر كبير في نفسه، فهي ليست فكراً مجرداً وليست نظرية وإنما هي عَمَلٌ وتطبيق، والدليل على ذلك:-

إنّها قد طُبّقت من قِبَلِ القدوة، من قِبَلِ النماذج السليمة..

أولاً:- سيّد الأولين والآخرين، وخاتم الأنبياء والمرسلين، البشير النذير والطهر الطاهر أبو القاسم محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) فالله ﷻ يقول في سورة الأحزاب، آية/21:-

﴿لقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرَاً﴾

إذن فالقدوة الصالحة أولاً هي: الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم) والله ﷻ يقول في آيات كثيرة على لسان نبيِّه (صلى الله عليه وآله وسلم) كما في سورة الأنعام، آية/153:-

﴿وَإِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمَاً فَاتَّبِعُوهُ﴾

أي أطيعوا الله والرسول، فلابد أن يكون أول قدوة ونموذج:-

هو الإنسان الكامل وهو الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم) وذلك بنصٍ

من القرآن الكريم.. فاجعل الرسول أمامك، بِخُلُقِه وإيمانه وورعه وتقواه.. لا يمكن أن تكون رسولاً ولا يمكن أن تكون نبيّاً ولكن يمكن أن تتسلّك طريقه وأن تقتديَ به وذلك باتباع أوامره واستنان سُنّته والتخلُّق بأخلاقه...

ثانياً:– أهل البيت الأطهار الذين أذْهَبَ الله عنهم الرجس وطَهّرهم تطهيراً، لابد أن يكونوا القدوة لكل المسلمين ولكل المؤمنين وللشباب الأعزاء بشكلٍ خاص، وهذا واضح من قول الإمام علي(عليه السلام):–

﴿ألا فاعلموا أنَّ لكل مأمومٍ إماماً يقتدي به، فاعلموا أنَّ إمامكم قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن زاده بقرصيه وإنّكم لا تقدرون على ذلك﴾

يعني ليس هذا المطلوب منكم أيها الشباب!.. ﴿ولكن أعينوني ﴾ لاحظ القدوة العملية:–

﴿بورعٍ واجتهاد وعفةٍ وسَداد﴾

بِوَرِع عن محارم الله ﷻ.. واجتهاد في طاعة الله ﷻ.. وعفّة البطن واللسان عن الحرام والخطأ.. وسَداد القول.. فأهل البيت(عليهم السلام) من الذين أنابوا إلى الله ﷻ ولذلك علينا اتباعهم...

ثالثاً:– الصحابة الأجِلاّء الأتقياء، الصحابة الورعون المؤمنون الذين قدّموا وضحّوا، الذين هاجروا وجاهدوا، فهم صفحات ناصعة للإسلام فكراً وسلوكاً، فلابد أن تقتدي بهم لأنهم ممن أناب إلى الله وهو يأمرك بقوله تعالى في سورة لقمان، آية/15:–

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾

هذا مفهوم القدوة والنموذج الصالح الذي تجعله أمامك وتقتدي به –أيُّها الشاب– والذي يكون أولاً مع الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل البيت(عليهم السلام) والصحابة الأجلاّء والسلف الصالح من المؤمنين والعلماء والفقهاء والمجتهدين، هذا المفهوم –مفهوم الإقتداء– هو لمن كان يرجو الله واليوم الآخر...

فالقدوة ليس بالشيء السهل، والإنسان يقتدي بأولئك العظام الأتقياء ويتّبع سبيلهم وليس هذا شيئاً سهلاً –كما قلنا– هي لذيذة ولكنها ليست سهلة!.. هي سعادة ونعيم ولكنها تحتاج إلى مجاهدة وتربية النفس!.. ولا يمكن أن تنفصل مجاهدة النفس وتربيتها

عن الإيمان بالله تعالى ولهذا يقول عزَّ من قائل في سورة الأحزاب، آية/21:-

﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ﴾

فمن يتمكّن أن يجعل هؤلاء قدوة له ويتسلّك سلوكهم، إذن كان يرجو الله، لماذا؟..

لأنَّ هؤلاء هم الأدّلاء على الله ﷻ.. فلولا محمد وآل محمد والصحابة الأتقياء والسلف الصالح من العلماء والمجتهدين والفقهاء لما عرفنا الأحكام الإلهية.. فإن كنت ممن يرجو الله، فاتّبع سبيل من أناب، والله يقول في سورة الأحزاب، آية/21:-

﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ﴾

أي بمعنى أنه يحسب حسابات لليوم الآخر، بمعنى أنه يتذكر قول الله ﷻ في سورة الحشر، آية/18:-

﴿وَلتَنْظُر نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ﴾

بمعنى أنه يعلم قول الله تعالى في سورة الزلزلة، آية/7-8:-

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذرَّةٍ خَيْرَاً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرَّاً يَرَهُ﴾

بمعنى أنه ملتفت إلى قول الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا﴾

فعندما يكون في باله وعقله وروحه أنَّ هناك يوم آخر وأنَّ هناك آخرة وقيامة، فعند ذلك يتوجّه إلى اللهﷻ ويتّبع سبيل من أناب، ويتّبع القدوة الحسنة.. يقول تعالى في سورة الأحزاب، آية/21:-

﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرَاً﴾

﴿ذَكَرَ اللهَ﴾ هذا هو الميزان.. فهو أما ذِكْر وأما غفلة.. وهو أما مع الله وأما إعراض عن الله.. فإذا كنتَ –أيُّها الشاب– مع الله ودائم الإتصال معه، فلابد أن تكون ذاكراً له.. وإذا كنتَ ذاكراً له، فلابد أن ترجوه.. وإذا كنتَ ترجوه، فلابد أن تتّبع سبيل من أناب...

وإذا حصل إعراض –والعياذ بالله– وإذا حصلت غفلة، فعند ذلك يكون كما قال تعالى في سورة طه، آية/124-126:-

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكَاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامَةِ أَعْمَى قَالَ

رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً قَالَ كَذلِكَ أَتَتكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذلِكَ اليَوْمَ تُنْسَى﴾

لم تتّبع سبيل من أناب ولم تتّبع القدوة الصالحة.. لم تقتدِ بالرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وبأهل بيته.. لم تقتدِ بالصحابة الأتقياء ولا بالسلف الصالح من العلماء والفقهاء والمجتهدين.. نسيتها وكذلك اليوم تُنسى.. ولا تتصوّر أنك عندما تذكر الله ﷻ بشيء، فكأنك قد فعلتَ شيئاً أو قدّمتَ شيئاً أو أغريتَ الله ﷻ بذكرك له.. وما يصنعُ الله بذكرك؟...

هو الغني عن طاعة المطيعين، لأنه لا تنفعه طاعة المطيعين ولا تضره معصية العاصين.. ولكنها لك.. ولهذا المطلوب ذِكْرٌ كثير، عدم فتور، عدم إعراض، عدم نسيان، عدم غفلة.. أما عندما تتكلم كلمتين أو تقرأ آيتين وتُسبّح تسبيحتين، وتعتقد أنك قد ذكرتَ الله ﷻ فذلك ليس بصحيح...

﴿كَثِيراً ﴾ معناه:-

ذِكْرٌ دائم متصل بدون غفلة، بقلبك قبل أن يكون بلسانك...

﴿ذَكَرَ اللهَ﴾ معناه:-

أن تُحكّم الله ﷻ فيما تقول وتفعل...

هذا ﴿ذَكَرَ اللهَ﴾.. هذه القدوة الحسنة الصالحة.. هذا النموذج الكامل والمتكامل الذي لابد أن تضعه -أيُّها الشاب- أمامك، لتكشف نفسك:-

هل أصلحتَ مع الله ولم تُشرك بالله وأحببتَ الله وأطعته؟..

هل ارتبطتَ بالرسول(صلى الله عليه وآله) ؟..

هل اتّبعتَ سبيل من أناب؟.. والنبيُّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول:-

﴿ما آمنَ بي من باتَ شبعان وجاره جائع ﴾

ويقول(صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿من أصبح وأمسى ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم ﴾

إذا كنتَ هكذا، واتّبعتَ سبيل من أناب، فتكون ممن استجاب للموعظة القرآنية واستجاب للأمر الإلهي.. ولابد أن نلتفت إلى صفات وملامح القدوة الصالحة حتى تكون

قدوة عملية سلوكية لنا، ومن أهم صفات القدوة:-

الإستقامة:-أَمَرَنا الله تعالى في موضوع القدوة، حيث قال في سورة الأحزاب، آية/21:-

﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ﴾

أُنظر إلى القول القرآني المذكور في سورة فصلت، آية/ 6 والذي هو على لسان النبيِّ:-

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيهِ وَاسْتَغفِرُوهُ﴾

نحن كأمّة مأمورون بالإقتداء بالرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) فهو يقول:-

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾

الفرق بيني وبينكم هو أنَّي يُوحى إليّ، أنَّي المُبلّغ عن الله ﷻ لكم، أنا حامل رسالة ربِّ العالمين لكم وسفيره إليكم، ولهذا كل الخصائص البشرية متوفرة فيه كما هي متوفرة في أي بشر إلاّ أنه رسول وهو نبيّ وحامل رسالة الله إلينا...

ولهذا جعل الله له ضمانات من أجل إيصال هذه الرسالة إلينا ولكن الحقيقة واحدة، فكما جعله الله ﷻ القدوة الصالحة وعلينا اتباعه، فهو بشر وسيد البشر، ونحن بشر مثله ولهذا يقول تعالى في سورة فصلت، آية/6:-

﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيهِ وَاسْتَغفِرُوهُ﴾

فكأنّه يريد أن يقول:-

كما استقمتُ أنا إلى الله ﷻ وكما أنَّ قلبي متعلق به وحده، لا أرى غيره ولا أُفكر بغيره، ولا ألتفتُ إلى سواه، فكذلك أيَّتها الأمّة... أيُّها الشباب... توجّهوا إلى الله ﷻ واستقيموا.. ويؤكد هذا قول الله ﷻ في سورة هود، آية/112:-

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾

فهنا الإستقامة موجّهة إليه ابتداءاً، وإلى الأمة بشكل عام.. وفي نفس هذه الآية قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿شيّبتني هود وأخواتها﴾

قيل:-لِمَ يا رسول الله؟.. قال (صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿لقوله تعالى:- فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾

فاستقيموا إليه، أيُّها الشباب.. هذا أمر الله ﷻ لكم، وكيف تتم الإستقامة؟..

تتم الإستقامة بالاستغفار!.. لأنّكم بشر، وهذا هو الإختلاف بيننا وبين الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم) فهو كما يقول الله في سورة النجم، آية/3-5:-

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوْحَى عَلَّمَهُ شَدِيْدُ الْقُوَى﴾

أما نحن فمُعرَّضون للخطأ والانحراف والنسيان والاشتباه ولهذا يقول الله ﷻ ﴿فَاسْتَقِيْمُوْا إِلَيْهِ ﴾ أي اجعلوه الخط الواضح أمامكم.. ولكن قد تُخطؤون وتنسون وتنحرفون ﴿وَاسْتَغْفِرُوْهُ﴾ إذا عصيتم وزللتم، وإذا ابتعدتم وسيطرت عليكم شهواتكم.. ونفس هذا المعنى تؤكده الآية الثانية في سورة هود، آية/112:-

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾

فالمطلوب: التوبة إلى الله، فهنا لابد أن نرى هل نحن معه أم لسنا معه؟.

إن استقمنا وتبنا، فنحن معه وهو قدوتنا ونبيّنا وشفيعنا وبذلك نكون قد استجبنا لقول الله تعالى في سورة الأحزاب، آية/21:-

﴿ولَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ﴾

ونكون قد استجبنا للأمر الإلهي في سورة لقمان، آية/15:-

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾

ومن ضروريات الإستقامة والتي هي سمة من أناب هي:-

التّحكُّم بالأهواء:- حيث لا تتم الإستقامة بدون قدرة الإنسان على تحكّمه بأهوائه ورغباته وميوله، لا يمكن أن تتم الإستقامة بدون تقوية إرادة الإنسان وجَعْل الإرادة تتحكّم بأهوائه وميوله حتى يتمكّن من معرفة الدنيا ومغرِياتها والتغلّب عليها.. ويعرف الآخرة وما تتطلّب منه وكيف يسعى لها...

فلا يمكن أن نتصور استقامة عملية بدون تَحكّم بالأهواء ومن دون تقوية ومن دون تربية للنفس تربية متكاملة، تربية فيها تغذية إلهية وتنمية قرآنية..

ولهذا فالتحكّم في الأهواء وتقوية الإرادة من أهم سمات الإستقامة التي هي سبيل من أناب..

ولهذا نرى الله ﷻ في سورة النازعات،آية/(37-39) يؤكّد على مفهوم الإستقامة العملية والتي هي تَغلُّب على هوى الإنسان وتقوية إرادته، فيقول:-

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنيا فَإِنَّ الجَحِيمَ هِي المَأوَى ﴾

هذا النوع الفاشل في إرادته، الفاشل في تَحكّمه بأهوائه، ولهذا طغت عليه الدنيا وشهواتها وزخرفها وأبعدته عن الإستقامة...

أما النموذج الثاني، النموذج المستقيم، النموذج الذي أتّبع سبيل من أناب، النموذج الذي أتّبع القدوة الصالحة يصفه تعالى في سورة النازعات، آية/40-41:-

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأوَى﴾

ولهذا يؤدي اتباع سبيل من أناب إلى تحقّق الإستقامة التي أولها: مخافة الله ﷻوالمخافة لا تكون إلاّ بعد الحب لله ﷻ...

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ مقام ربه:-

المقام الإلهي، المكانة القدسية ويعني الإندماج الكامل ما بين العبد وبين ربه حتى يعرف مقام ربه وبالتالي يخشاه ولا يريد أن يخالف المقام القدسي العظيم.. وعندما خاف مقام ربه هنا، تأتي الإستقامة العملية.. هنا تأتي الإرادة والتحكّم بالأهواء.. هنا تأتي تربية النفس وصقلها وتغذيتها ولهذا تقول الآية:-

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى ﴾

فالهوى هو حب الدنيا!.. ولهذا ورد في الحديث:-

﴿حب الدنيا رأس كل خطيئة﴾

ويقول الله تعالى في سورة النازعات، آية/37-38:-

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنيَا﴾

فعندما نسى الله ﷻ نسى نفسه وطغى!.. وبذلك تكون الدنيا كل همّه وعقله وروحه وقلبه.. أما إذا خاف مقام ربه، وحصل ما بينه وبين ربه علاقة.. علاقة عبودية وحب وطاعة،

عند ذلك يحسب حساباً للمقام الإلهي.. وإذا حسب الحساب للمقام الإلهي، عند ذلك يكون أمران:-

1-وصول الإمدادات الإلهية:- وذلك بقوله تعالى في سورة النحل، آية/102:-
﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾

2-تقوية الإرادة:-وبهذا تكون استقامته عملية وعند ذلك ينهى النفس عن الهوى، والهوى هو كل شيء بعيد عن الله ﷻ أما إذا كان كل شيء بطاعة ورضا الله وفي طريق الله، فهو منه وإليه.. فما أحلاه وأرضاه!.. حتى المأكل والمشرب إذا كان لله وقربة تتقرّب بها إلى الله، فهو طاعة تُثاب عليها!..

والنتيجة الطبيعية لمن ينهى نفسه عن الهوى، تكون الجنة هي المأوى له، وذلك من لُطف الله كما يقول تعالى في سورة النازعات، آية/40-41:-
﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَىٰ﴾
والهوى ضد الإستقامة والإرادة ولهذا نرى الله ﷻ يقول في سورة ص، آية/ 26:-
﴿وَلا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾
إذا اتَّبعتَ هواك -أيُّها الشاب- وخالفتَ مولاك وربك واتّبعتَ الدنيا المحرمة.. لأنَّ هناك دنيا محلّلة لذيذة والتي هي من الله وإلى الله ومع الله!.. ولكنك إن تركتها ونسيتها واتّبعتَ هواك واتّبعتَ دنيا الشيطان -وانتبِه أنَّ الشيطان لا يُملي عليك إلاّ المعصية والرذيلة، ولا يُملي عليك إلاّ الفسق والفجور، ولا يُملي عليك إلاّ البعد والضلال- ولهذا تقول الآية:-

﴿وَلا تَتَّبِعِ الهَوَى﴾ لماذا؟...
الجواب: ﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾
وسبيل الله هو سبيل من أناب.. سبيل الله هو سبيل الإستقامة.. سبيل الله هو سبيل الإنسان القادر على التحكّم بأهوائه وميوله.. سبيل الله هو سبيل العقل والفكر.. سبيل الله هو سبيل العبودية لله وحده وليس لهواك وميولك وشهواتك.. يقول تعالى في سورة ص، آية/26:-

﴿وَلا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ﴾

ويتضح من الآية المباركة أنَّ الذي يتغلّب عليه الشيطان، يُنسيه الله ويُنسيه الآخرة ويوم الموقف ويُنسيه قول الله تعالى في سورة الحشر، آية/18:-

﴿وَلتَنْظُر نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾

ويُنسيه قول النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا﴾

ولا يبقى في عقله وباله إلاّ هواه وملّذاته ورغباته، وقد سيطرَ الشيطان على عقله وروحه ونفسه، وسيطرَ على تصرفاته قولاً وسلوكاً ولهذا نرى قول الله في سورة النساء، آية/135:-

﴿فَلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَنْ تَعدِلُوا وَإِنْ تَلووا أَو تُعرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعمَلُونَ خَبِيراً﴾

فهنا نهيٌ عن اتباع الهوى وضرورة محاسبة النفس والإلتفات إليها بشكلٍ كاملٍ ودقيق، ونحن نتكلّم عن الإستقامة التي هي أهم سمات (سبيل من أناب)، فعندما نريد الإستقامة ونتّبع سبيل مَن أناب.. أول ما نلتفتُ إليه هو أن لا نتّبع الهوى، لأنَّ فيه الضلال وفيه خسران الدنيا والآخرة، لأنّك حتى لو –في تقديرك– سُررتَ للحظات أو ساعات أو أيام إلاّ أنّك تعلم تفاهة هذا السرور!.. ولهذا يقول الإمام علي (عليه السلام) :-

﴿إنَّ أخوف ما أخافه عليكم الهوى وطول الأمل، أما الهوى فإنه يصدُّ عن الحق وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة﴾

نعم، الهوى يصدُّ عن الحق، أي عن الله.. لأنَّ الحق هو الله، هو الملك الحق المبين...

فالهوى يُضلّك عن الله وعن سبيل الله، ويُضلّك عن قرآن الله ونبيِّ الله، ويُضلّك عن أهل الله وصحابة الله، ويُضلّك عن (سبيل من أناب) ويصدُّك عن الإستقامة وتكون عبداً لغرائزك وميولك ونزغات الشيطان وعند ذلك تكون عبداً للمال.. وتكون عبداً لبطنك وشهواتك.. وعند ذلك تكون لقمة سائغة بيد الشيطان، يلوكها كيف يشاء!..

فانظر أي مكان تريد؟.. وأي موضع تضع فيه نفسك؟..

هل تضع نفسك لقمة سائغة للشيطان، يلوكها ويلعنك؟!.. يلوكها وهو يستهزئ بك؟!.. وعندها تكون جندياً من جنود الشيطان بينما الله يريدك أن تكون خليفته في الأرض.. ولهذا هناك طريقان وخطّان:-

خط الله.. وخط الشيطان..

خط الشيطان يؤثِر الحياة الدنيا وما فيها وتكون الدنيا كل همِّه.. والله يعطيه من الدنيا ولكن ليس له في الآخرة من نصيب...

أما الذي يسعى للآخرة.. أما الذي مع الله وفي سبيل الله.. أما الذي مع النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) والقرآن العظيم ويتّبع سبيل من أناب، عند ذلك يريد الآخرة.. ومن أراد الآخرة، يعطيه الله الدنيا والآخرة!..

فإذا كان إنسان نظرته نظرة قاصرة، عند ذلك يتمسّك بالدنيا ليحصل على اللذّة العاجلة.. أما إذا كانت نظرته نظرة سليمة، عند ذلك يحسب حسابين: للدنيا وللآخرة.. عند ذلك يكون في باله قوله تعالى في سورة القصص، آية/77:-

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَة وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾

عند ذلك تكون هناك موازنة، هذه الموازنة فرَضَها القرآن الكريم والإسلام العظيم والنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) فهو يريد الدنيا باعتبارها مزرعة الآخرة، ويريد الدنيا لأنّها تُعطيه حالة القرب من الله ﷻ يريد الدنيا كي يتلذّذ بمعنى العبودية لله تعالى بما في هذه العبودية من عزّة ووجود وكرامة.. ولهذا يقول الإمام علي (عليه السلام):-

﴿أما الهوى فإنّه يصدُّ عن الحق وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة﴾

فمن لا يتصوّر أنَّ هناك موتاً وحساباً، فهذا من يطول أمله بحيث يكون غافلاً عن الآخرة وحسابها، وإذا غفل عن الآخرة، فلن يُعِدَّ لها ما تريد وما تحتاج!.. يكون ناسياً لقوله تعالى في سورة الحشر، آية/18:-

﴿وَلتَنْظُر نَفسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ﴾

ويكون ناسياً للحديث الشريف:-

﴿الناس نِيام إذا ماتوا انتبهوا ﴾

فيعيش في غفلة لأنَّ أمله طويل ولا يتصوّر أنّه يموت ولذلك فهو لا يتصوّر يوم حسابه ويوم موقفه بيد الله ﷻ ولهذا لا يُعِدّ له عُدة ولا يحسب له حساباً، ولا يُحاسِب نفسه قبل أن يُحاسَب!.. ولهذا يقول الإمام:-

﴿وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة ﴾

مطلوب طول الأمل ولكن بشرط أن يكون معه حساب الآخرة ولهذا يكون:-

﴿إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً﴾ هذا (طول الأمل)

﴿واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً﴾ هذا (حساب الآخرة)

فلابد من الموازنة إذن...

تحدثنا عن الإستقامة والتي هي أهم صفة من صفات القدوة الصالحة وأنَّ أهم سمة وشرط للإستقامة هو موضوع الإرادة والتحكّم بالأهواء، ولهذا لابد ونحن نتحدث عن الإستقامة التي هي سمة (من أناب) لأنَّ الموعظة القرآنية للشباب تقول:-

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾

فلابد أن نقوّيَ العلاقة ما بين العبد وبين الله حتى تكون الإستقامة عملية ونقوّي الإرادة ونتحكّم بالأهواء.. ومن أهم إيجابيات تقوية الإرادة والتحكّم بالأهواء بعد تأكيد العلاقة مع الله ﷻ علاقة العبودية والحب والطاعة هي:-

المسارعة إلى المغفرة:- أي المسارعة إلى الله ﷻ لأنَّ الإنسان عندما أراد الإستقامة وقَوّى الإرادة وتَحكّم بأهوائه، فلابد أن يُسارع إلى ربّه.. أن يُسارع إلى عبوديته لله.. أن يُسارع إلى حب الله وطاعته.. أن يُسارع إلى التوبة وطلب المغفرة.. والله تعالى يقول في سورة آل عمران، آية/133:-

﴿وَسَارِعُوْا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾

وهنا المسارعة تأكيد على موضوع ومفهوم ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ ﴾ فالمسارعة ضرورية، لأنّ الإنسان لا يعلم متى يُدعى، فيجيب.. متى يدعوه الله ﷻ إليه وإلى جواره، وليس له إلا الإستجابة والإستسلام والرضا والذهاب.. فلابد أن يسارع إلى الله وإلى المغفرة والطاعة على قاعدة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿إغتنمْ خمساً قبل خمس:-شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وحياتك قبل موتك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك ﴾

فلا تغترّ بشبابك وصحتك وقوتك ونشاطك ومالك وجاهك!.. بل سارع إلى مغفرة.. بمعنى سارع إلى العمل الذي يكون نتيجته المغفرة.. سارع إلى العبودية السليمة ما بينك وبين ربّك، والتي تجمع بين الإيمان والحب والطاعة والتسليم والرضا، والله تعالى يقول في سورة آل عمران، آية/133:-

﴿وَسَارِعُوْا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾

أيَّتها الأمة... أيُّها الشباب...

هو الذي خلقكم وكوّنكم.. هو الذي ربّاكم وسوّاكم.. هو الذي أوجدكم وهداكم.. هو الذي أنتم مفتقرون إليه في كل شيء وهو الغني عنكم...

﴿وَسَارِعُوْا إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾

قوّوا إرادتكم وتحكّموا بأهوائكم.. عودوا إليه وأنتم في الحياة الدنيا قبل أن تعودوا إليه مرغمين في الآخرة!.. أليس النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) يُصوّر الموت بالنسبة للمؤمن وغير المؤمن، حيث يقول:-

﴿المؤمن كالغريب يعود إلى وطنه مستبشراً والكافر كالعبد الآبق يُردّ إلى مولاه قسراً﴾

فإن سارعنا إلى مغفرة في الحياة الدنيا، نكون قد رجعنا إلى الله في الحياة الدنيا.. وإن لم نسارع للمغفرة، نكون كالعبد الآبق يردّ إلى مولاه قسراً.. فقول الله تعالى:-

﴿وَسَارِعُوْا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾

من باب التقريب، لأنّه لا يمكن معرفتها إلاّ بالوصول إليها، حيث فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين!...

وبعد هذه المسارعة إلى المغفرة وإلى الله ﷻ، كما في سورة آل عمران، آية/134:-

﴿الَّذِيْنَ يُنْفِقُوْنَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾.

نعود إلى مفهوم الإستقامة وتقوية الإرادة والتحكّم بالأهواء والتي هي أهم سمة من

سمات (من أناب)، يُنفق في السرّاء والضراء، وتلك إرادة، فالمال عزيز، إلاّ أنّه عندما ترى أنّ المال تُنفقه لله ﷻ وأنّك موكل عليه، فهو من الله وتُنفقه لله، وكما تُعبّر الآيات القرآنية من باب اللطف والكرم:-

﴿قَرْضاً حَسَناً﴾

ذلك من تمام إرادتك وتحكّمك بأهوائك!.. لأنَّ الشيطان وهوى النفس يقولان لك:-

أمسكْ يدك، لا تفتقر.. لا تُعطِ ما عندك...

لماذا تعطي لهذا الفقير؟.. لماذا تُعطي لهذا المسكين؟.. سيأتي غيرك ويُعطيه...

والنفس كما وُصِفَتْ في قوله تعالى في سورة الفجر، آية/20:-

﴿وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبَّاً جَمَّاً﴾

ولكن إذا كنت قد اتّبعت ﴿سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ واستقمت وقوّيت الإرادة وتغلّبت على أهوائك وتحكّمت بها، فسوف تُنفق وكما يقول الله ﷻ في سورة الإنسان، آية/7-11:-

﴿وَيُطْعِمُوْنَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيْنَاً وَيَتِيْمَاً وَأَسِيْرَاً إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيْدُ مِنْكُمْ جَزَاءاً وَلاَ شُكُوْرَاً إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمَاً عَبُوسَاً قَمْطَرِيْرَاً فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوْرَاً﴾

أو كما يقول الله ﷻ في سورة آل عمران، آية/134:-

﴿الَّذِيْنَ يُنْفِقُوْنَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾

فهذه الآية المباركة نحملها على حالة الإنسان نفسه، فعندما يكون مسروراً، وعندما يكون في حالة ضرٍّ وبلاء وامتحان.. وكذلك تريد أن تقول الآية: أن لا يكون إنفاقك في وقت ابتلائك فقط، وإنّما الإنفاق لابد أن يكون أصلاً من أصول علاقتك مع ربك...

فكما تصلي وكما تصوم وكما تأتي بكل العبادات، فالإنفاق كذلك من العبادات.. أي لابد أن تنفق ضمن كل الأوقات.. في حالة سرورك، وفي حالة ضرّائك.. في حالة راحتك، وفي حالة غضبك وابتلائك.. وهذا ردٌّ على ما نراه من بعض الناس في وقت الإبتلاء والمحنة يأخذ ويتصدّق، أما في وقت الرخاء، فإنه ينسى اللهﷻ..

فالآية تريد أن تعطيك معنى الإستمرار والدوام والإستقامة على الإنفاق والتي تريد

أن تقوّي إرادتك عليه، فهي تقول:-

﴿الَّذِيْنَ يُنفِقُوْنَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾

تلك هي الصياغة الربّانية لك!.. تلك هي الصياغة الربّانية لخليفة الله في الأرض!...

ومرةً نقول: أنّ المقصود في السرَّاء والضرَّاء، الحالة النفسية، لمن تعطي؟...

أي تعطي لمن هو محتاج سواءاً كان في حالة سروره أو ألمه!.. فهناك الكثير ممن هو محتاج ولكن تراه مستبشراً فرحاً!.. لأنَّ إيمانه وعلاقته مع الله ﷻ عنده أغلى من كل شيء، حتى لو لم يأكل اليوم، حتى لو لم يشرب اليوم!.. تريد أن تقول الآية:-

أعطه حتى لو تراه فرِحاً مسروراً.. فهو ممن تصفهم الآية المباركة في سورة البقرة، آية/273:-

﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾

تريد أن تقول الآية:-

أعطِ من تراه مسروراً، ومن تراه في حالة الضرِّ والإبتلاء.. فهذه من أهم سمات تقوية الإرادة والتحكّم بالأهواء، ومن أهم السمات كما تنص عليه الآية الكريمة من سورة آل عمران، آية/134:-

﴿الَّذِيْنَ يُنْفِقُوْنَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ والْكَاظِمِيْنَ الغَيْظ﴾

فالشيطان هو قرين الإنسان دائماً، وتكون هذه الصحبة ما بين الإنسان والشيطان أقوى شيء في حالة الغضب.. ولهذا، فالشيطان تكون سيطرته على الإنسان في غضبه عالية ويحاول أن يوقعه في الحرام، قولاً.. فعلاً.. وسلوكاً.

فالذي لم يتمكّن من نفسه ولم يُقوِّ إرادته ولم يتحكّم بأهوائه، يستجيب لغضبه، يستجيب للشيطان ولما يلقيه في رُوعه.. فإذا سمع من الغير ما يزعجه أو ما يغضبه ويعكّر مزاجه، تراه يجيبه بمثل ذلك الكلام أو أكثر منه، ويتصوّر أن ذلك من تمام العقل والرجولة وما شاكل ذلك.

والحال، هو العكس تماماً!.. هذا هو تمام الإبتعاد عن الله ﷻ.. هذا هو من تمام عدم فهم الإنسان لنفسه، ومن تمام عدم فهم الإنسان للآخرين وكيفية التعامل معهم،

وكذلك لعدم تقوية إرادته ولعدم التحكّم بأهوائه!.. ولهذا نرى أنَّ الإمام علي(عليه السلام) يقول:-

﴿ليس الشديد بالصُرَعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب﴾

فليس الشديد الذي يتصارعِ ويصرع الآخرين أو يتلاسن ويسبُّ ويشتم الآخرين، ليست هذه شدة.. فالحيوانات المفترسة كلها على هذا الحال!.. إنما الشدّة من يملك نفسه عند الغضب!.. هنا (سبيل من أناب): إستقامة.. تقوية إرادة.. تَحكّم بالأهواء.. يجعل الله أمامه ويتذكَّر قوله في سورة الفرقان، آية/63:-

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامَاً﴾

يلتفت إلى القدوة ونحن نتكلم عن القدوة كيف كانوا، فليقتدِ بهم.. عندما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يدعو الناس إلى الله (عز وجل) فيُسَبُّ ويُشتم ويُضرب بالحجارة، فماذا كان جوابه وهو رحمة للعالمين؟!.. كان (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول:-

﴿اللهم اهدِ قومي إنَّهم لا يعلمون﴾

فلا يسبهم ولا يشتمهم وهذا هو كَظْم الغيظ... والإمام علي (عليه السلام) مرَّ بأصحابه وهم يسبّون معاوية، فقال:-

﴿لا تسبُّوه ولا تشتموه ولكن قولوا: هذه أعمالنا وهذه أعماله﴾

وهكذا الأئمة الأطهار والصحابة الكرام، وهكذا السلف الصالح من العلماء والمجتهدين والفقهاء، وهكذا سيرة الورعين الأتقياء.. الله (عز وجل) يعلم أنَّ كَظْم الغيظ ليس بالسهل ولكن يريد أن يصوغ الإنسان صياغة إلهية ربّانية!.. كي تكون العلاقة ما بينه وبين الله (عز وجل) هي المقوّية لإرادته والمتحكّمة بأهوائه، ويكون الله وحده هو الميزان.. ولهذا نرى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿من كَظَمَ غيظه وهو قادر على إنفاذه ملأه الله يوم القيامة رضا﴾

وفي خبر آخر:-﴿ملأه أمناً وإيماناً﴾

فهو يعلم أنَّ كَظْم الغيظ ليس بسهل ولهذا يكون العطاء ضخماً!.. ﴿رضا﴾ الذي هو أعظم من الجنة وما فيها!.. كما يقول تعالى:-

﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَر﴾

والرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول:-

﴿أمناً وإيماناً﴾

في ذلك اليوم الذي يحتاج الإنسان أكثر ما يحتاج فيه إلى الأمن من حيث قوله تعالى في سورة الحج، آية/2:-

﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتَ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾

فيُعطيك الأمن في ذلك اليوم، يوم يتبرَّأ الولد من والده والوالد من مولوده، يُعطيك أمناً وإيماناً!.. ولهذا نرى الإمام علي عليه السلام في إحدى وصاياه لولده الإمام الحسن عليه السلام يقول:-

﴿تَجرَّع الغيظ، فإنّي لم أرَ جرعةً أحلى منها عاقبة ولا ألذّ مغبّة﴾

أحلى منها عاقبة، لماذا؟..

لأنَّ عاقبتها رضا الله تعالى وعاقبتها أمناً وإيماناً...

وألذّ منها مغبّة، لماذا؟..

لأنَّ الإنسان يشعر بوجوده عندما يكظم غيظه، ويشعر بإنسانيته وعبوديته لله تعالى!.. يشعر بأخلاقه وعقله، يشعر بإرادته وبقدرته على التحكمّ بأهوائه!.. لماذا؟..

لأنَّ الغضب درجة من درجات فقدان الإنسان لعقله وإرادته!.. والله تعالى يقول في سورة آل عمران، آية/134:-

﴿وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾

إذاً، فالمطلوب من تقوية الإرادة والتحكّم بالأهواء ليس كَظْم الغيظ فحسب، وإنّما مرتبة أعلى من ذلك وهو العفو عنهم!.. والعفو هو كَظْم الغيظ وإعلام المقابل بذلك وإشعاره بالعفو عنه!.. ولهذا نرى أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول:-

﴿ما عفا رجل عن مظلمة رجل قط إلاّ زاده الله بها عزّة﴾

أنت عندما تعفو عنه: تُشعره بمنقصته.. تُشعره بخطئه، ومقابل ذلك، يكون لك عزّاً عنده، وعند الله قَبْلَه، وعند الناس جميعاً!.. لأنّك كنت تتمكّن أن تردّ عليه، ولكن عفوت عنه!.. ولهذا نرى الإمام علي عليه السلام يقول:-

﴿إذا قدرتَ على عدوّك، فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه﴾

مرتبة عالية!.. إلاّ أنّه أمْر لنا جميعاً.. فإنّك إذا قدرت على عدوّك، قدرت عليه بأن تقاصّه بكلمة أو بعمل، هذه القدرة هي نعمة من نعِم الله عليك، فاجعل العفو عنه، شكراً لله ﷻ للقدرة عليه.. أنظر كيف أنّ تقوية الإرادة بلغت بك درجة من السمو والرفعة والنَّزاهة إلى درجة عالية، لأنّك اتّبعت (سبيل من أناب)، لأنّك جعلت القدوة الصالحة لك محمد وآل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) والصحابة الأتقياء والعلماء الأبرار.. يقول تعالى في سورة آل عمران، آية/134:-

﴿وَاللهُ يُحِبُ المُحسِنِينَ﴾

إنّك بذلك تكون من المحسنين!.. الإحسان المعنوي القولي.. والإحسان المادي السلوكي.. الإحسان الفكري والنظري بالمسارعة إلى الله ﷻ وطلب المغفرة والرجوع إلى الله.. والإحسان التطبيقي بالإنفاق في السرّاء والضرّاء وكَظْم الغيظ والعفو عن الناس...

والإحسان كلمة عامة لما فيه نَفْع الناس، فكل ما فيه نَفْع للناس هو إحسان.. وقد ورد أنّ جارية للإمام علي بن الحسين عليه السلام أرادت أن تسكب الماء ليتوضّأ، فسقط الإبريق من يدها وآذى الإمام في رأسه، فقالت:-

إنّ الله يقول:- ﴿وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ﴾[1]

فقال الإمام:- ﴿قد كظمت غَيْظي﴾

فقالت:- ويقول:- ﴿وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[2]

فقال:- ﴿قد عَفوت عَنك﴾

فقالت:- ويقول:- ﴿وَاللهُ يُحِبُ المُحسِنِينَ﴾[3]

فقال الإمام:- ﴿إذهبي، أنتِ حرّة لوجه الله﴾

هذه هي القدوة..

وهكذا تستمر الآيات المباركة في الأمر بالإسراع إلى الله وطلب المغفرة، وتعطي

---

(1) سورة آل عمران، آية/134.

(2) سورة آل عمران، آية/134.

(3) سورة آل عمران، آية/134.

نماذج لتقوية الإرادة والتحكّم بالأهواء في إنفاق الأموال في السرّاء والضرّاء وكَظْم الغيظ والعفو عن الناس وكل ذلك من الإحسان الذي يأمر به الله ﷻ..

وتنتقل الآيات المباركة إلى حقيقة مُرّة، إلاّ أنّها واقعية للأمة ككل وللشباب بشكل خاص، فيقول تعالى في سورة آل عمران، آية/135:-

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَو ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُون ﴾

تريد أن تقول هذه الآية المؤكِدة لموضوع الإستقامة والذي هو شرطها لتقوية الإرادة والتحكّم بالأهواء، تريد أن تقول هذه الآية:-

مع كل هذا يمكن أن تُخطئ.. مع كل هذا ممكن أن تعصي.. مع كل هذا ممكن أن تَزِلَّ، وممكن أن يُسيطر عليك الشيطان في لحظة أو في ساعة!.. فإذا سيطر:-

فلا تيأس من رَوْحِ الله ولا تبتعد عن الله، عُد إلى الله، وارجع إلى الله، فالباب مفتوح إليك!.. والله يُحبُّك ويريد أن يغفر لك بشرط أن تتوجه له.. بشرط أن تتوب وتستغفر وتعود، فأنت لست بمعصوم.. والآية تقول:-

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾

فعلوا الحرام، فعلوا المعصية والرذيلة، فعلوا المنكر وظلموا أنفسهم.. يعني أنت بفعل الفاحشة والمعصية تظلم نفسك ولا تظلم ربّك!.. فالله غنيٌّ عن طاعة المطيعين ولا تضرُّه معصية العاصين، ولكن مع هذا لابد أن لا تنظر إلى المعصية ولكن انظر إلى من عصيت!..

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَو ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ﴾

بعدما فعل المعصية، في لحظةٍ سيطر فيها الشيطان عليه، نَدِمَ على فعلته بحقِّ نفسه، فذَكَرَ الله ﷻ واستغفره وتاب، وعاد إلى الله، تصوير للرحمة الإلهية:-

﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾

فيقول:-أستغفر الله من قلبه ولسانه وسلوكه وعمله..

تريد أن تقول الآية:-

أيَّتها الأمَّة.. أيُّها الشباب..

أنتم مُعرّضُون –دائماً– للخطأ، ولكن أكّدوا علاقتكم مع الله ﷻ أكّدوا حبَّكم وطاعتكم لله.. قوّوا إرادتكم.. تَحكّموا بأهوائكم.. إجعلوا القدوة الصالحة لأنفسكم، فإن عصيتم وابتعدتم، فاذكروا اللهِ.. عودوا إليه.. إستغفروه، فباب التوبة مفتوح والله يأمر ملائكته بالنداء:–

﴿هل من تائب، فيتوب الله عليه﴾؟..

﴿هل من مستغفر، فيغفر الله له﴾؟..

فلا تيأسوا ولا تبتعدوا، فاليأس من الكبائر وفي الحديث:–

﴿لو أتيتَ الله بعبادة الثقلين فلا تُدِل على الله بشيء، ولو أتيتَ الله بذنوب الثقلين فلا تيأس من رحمة الله﴾

ونرى قوله تعالى في سورة آل عمران، آية/135:–

﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ﴾

نرى تأكيد ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ ﴾ لأنَّه هو وحده المُحاسب، وهو وحده الحاكم يوم القيامة، لأنَّ الصحف كلها بيده، والأوامر كلها أوامر إلهية، ولأنَّه هو الذي يأمر بنَشْر الصحف ونُطْق الأعضاء، فهو الذي أنطقَ كل شيء، ولهذا يقول تعالى في سورة آل عمران، آية/136:–

﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِم﴾

هذا منتهى اللطف الإلهي، منتهى الكرم الربَّاني، منتهى النعمة!.. فبعد أن فعلتَ الفاحشة وبعد أن عصيت، ذكرتَ الله واستغفرتَه، وعُدتَ إليه.. عُدتَ إلى حبيبك.. عُدتَ إلى حصنك.. عُدتَ إلى وجودك.. عُدتَ إلى ربِّك ومولاك.. فعندما تعود إليه يستقبلُك بكلِّ حبٍّ ورعايةٍ وحنانٍ ولطفٍ وكرمٍ، وكما يقول تعالى في سورة آل عمران، آية/136:–

﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعمَ أَجْرُ العَامِلِينَ﴾

تصوير للنعيم، نعيم الجنة وما فيها، وما أعدَّ الله ﷻ للمُتّقين الذين سارعوا للمغفرة من ربِّهم، والذين أنفقوا أموالهم في السرَّاء والضرَّاء، والذين كظموا الغيظ، وعَفَوا عن

الناس، وأحسنوا للناس، والذين إذا فعلوا فاحشة، ذكروا الله واستغفروه، لهؤلاء أعدَّ الله ﷻ:-

﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾

هذه الجنات ليست لمدة معينة مخصوصة، بل:-

﴿خَالِدينَ فِيهَا وَنِعمَ أَجْرُ العَامِلِينَ﴾

﴿وَنِعمَ أَجْرُ﴾ يعني: منتهى اللطف الإلهي لمن يعمل لله ﷻ، لمن يجتهد في العمل لله ﷻ، لمن يخدم الله وعباده.

﴿وَنِعمَ أَجْرُ العَامِلِين﴾

هنا نلتفت إلى موضوع الأعمال الصالحة وأهمية الأعمال الصالحة وضرورة الأعمال الصالحة، فالأعمال الصالحة قسمان:-

1-أما أن تكون واجبة..

2-أو تكون مستحبة..

وهي دائماً تُقرّب الإنسان من الله ﷻ، وتؤكد إنسانيته وخلافته على الأرض، يقول تعالى في سورة هود، آية/7:-

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾

الشاهد من الآية: العمل الصالح، وكيف أنَّ الإنسان لابد أن يسعى للعمل الصالح، وكيف أنَّ الله ﷻ جعل الإنسان في هذه الدنيا، وجعل فيها خيراً، وجعل فيها شرّاً، فكيف لا تسعى إلى العمل الصالح الذي يُقرّبك إلى الله ﷻ ؟.. حتى تكون نتيجته:-

﴿وَنِعمَ أَجْرُ العَامِلِينَ﴾

يقول تعالى في سورة الكهف، آية/7:-

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾، لماذا؟..

﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلا﴾

فهذه التركيبة الموجودة على الأرض من خطوط إلهية وخطوط شيطانية جَعَلَها الله ﷻ كما يقول:-﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ أي لنختبرهم، وهذا الكلام موجّه للشباب بصورة خاصة..

و﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ بمعنى: أيُّهم عرف العمل الواجب فعَمِلَ به ومِن ثم أتقنه..
فعندما نقول:- ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾

مرة نقول:-العمل الصالح وغير الصالح، فيختار العمل الصالح..

ومرة أخرى نقول:-العملان صالحان، هذا أتى به بإتقان، والآخر أتى به بأقل إتقان من ذاك الأول، فالأول قد أحسن عملاً...

هذا أنفقَ، وذاك أنفقَ، ولكنّ الأول أنفقَ مع الكلمة الطيبة الرقيقة، وذاك أنفقَ مع المنَّة..

هذا أنفقَ بِرضَا وسرور، وذاك أنفقَ بألمٍ وحسرةٍ على الدرهم والدينار، ولهذا يقول:-

﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾

-أعطاك المال ليبلوك، كيف تُنفقه؟..

-أعطاك الصحة ليبلوك، كيف تتصرّف بصحتك؟..

-أعطاك الجاه ليبلوك، كيف تتصرّف بجاهك؟..

وعندها كما يقول تعالى في سورة الأنفال، آية/37:-

﴿لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾

أي ليكشف من هو أحسن عملاً، فيكون هو الطيّب.. ومن هو أسوء عملاً، فيكون هو الخبيث، لأنَّ عمله كان للدنيا، للشيطان، لميوله وأهوائه.. ويقول تعالى في سورة الملك، آية/2:-

﴿الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾

وهكذا: هناك حياة وهناك موت.. هنا عمل بلا حساب، والآخرة حساب بلا عمل، وهناك يظهر من هو أحسن عملاً، صحائف تذهب إلى الله ﷻ، هذه الصحائف لا تُغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصتها!.. لأنَّه يقول تعالى في سورة ق، آية/18:-

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ لَدَيهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

واللهﷻ يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور، فكلها صحائف بين يديه!.. فهناك يظهر من عَمِلَ لله، فَأجْرُه على الله.. ومَن عَمِل للشيطان، فأجْرُه على الشيطان.. ولهذا لابد من التنافس ما دمنا في الحياة الدنيا، لابد من التنافس على العمل الصالح، يقول تعالى في

سورة البقرة، آية/148:-

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الخَيرَاتِ﴾

ويقول تعالى كذلك في سورة المائدة، آية/48:-

﴿وَلكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّؤُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

وهذا ما قلته:-إنّ الصحة التي أعطاك الله إياها: هي امتحان لك!.

-والجاه الذي أعطاك الله إياه: هو امتحان لك!.

-والمال الذي أعطاك الله إياه: هو امتحان لك!.

ولذلك، لابد أن تستبق الخيرات وتستعملها كلها في سبيل الله لتكون ممن اتّبع سبيل مَن أناب!.. لا تقل للعمل، سوف أعمله غداً أو أعمله بعد شهر أو بعد سنة.. وما يدريك أنّ عمرك باقٍ بعد غد أو بعد شهر أو سنة، فلا تؤجّل عمل اليوم إلى غد، وما يُدريك ربما لا تستطيع أن تعمل اليوم ما كنت تعمله بالأمس.. وهذا مؤكّد في قوله تعالى من سورة آل عمران، آية/136:-

﴿وَنِعمَ أَجْرُ العَامِلِينَ﴾

فالأثرة من الصفات الرائعة إلاّ في الأعمال الصالحة!.. فلا تؤثِر غيرك على نفسك، وإنّما بادرْ إلى العمل الصالح وبادرْ إلى فعل الخير!.

نعود للكلام عن موضوع القدوة وموضوع ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ ﴾ -(لأهميته للشباب بشكل خاص)-

فالله ﷻ يقول ويُبيّن لنا القدوة وكيف نتّبعهم ونكون معهم، يقول تعالى في سورة الكهف، آية/28:-

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجَهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَينَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطَاً﴾

فالآية تؤكِّد على ضرورة القدوة الصالحة، وأنّ الإنسان لابد أن يجعل له قدوة صالحة أمامه وأن يتّبع سبيلهم ويجعل نفسه معهم، وأن يكونوا نماذج له، نماذج فكرية

وعملية سلوكية أخلاقية.. ولهذا تقول الآية:-

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾

يعني واجعل نفسك مع القدوة الصالحة، ومن سمات القدوة الصالحة:-

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ﴾

وهذه الآية تُعبّر عن الإتصال المستمر الكامل مع الله ﷻ ليلاً ونهاراً، فهم دائمو الذكر للهﷻ، وتُعبّر الآية عن الإتصال الكامل الدائم، الإتصال المطلق مع الله ﷻ، وهذا الإتصال يريدون به وجهه.. فهم لا يريدون غير اللهﷻ لا في نفوسهم ولا في عقولهم، فهم يريدون وجهه، يريدون وجهه بكل قول وعمل.. ولذلك لابد أن يجعل الإنسان نفسه مع القدوة الصالحة، في طريقهم مقتدياً بهم، مُقتفياً لأثرهم، مُتخلّقاً بأخلاقهم، مُتسلّكاً سلوكهم وأن لا تكون الدنيا أكبر همّه، واللهﷻ يقول في سورة الحديد آية/20:-

﴿إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَينَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ﴾

كل ذلك لا يعنيه ولا يُشكّل عنده شيئاً، ولكن الذي يعنيه هو اللهﷻ وحده والعمل الذي يُقرّب إلى الله، والقدوة الصالحة التي يقتدي بها ويقتفي أثرها، ولهذا نرى الإمام محمد الباقر‰ يقول عن الدنيا وعن الحرص والتعلق بالدنيا:-

﴿مثلُ الحريصِ على الدُّنْيَا كمثل دودة القزّ كلما ازدادت من القزّ على نفسها لفّاً كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غمّاً﴾

هذا هو الفرق بين المتعلّق بالدنيا والمتعلّق بالله، حيث كلما ازداد تعلّقاً بالله، ازداد فرحاً وسروراً واطمئناناً وسعادة، وكلما ازداد تعلّقاً بالدنيا أكثر، ازداد غمَّاً وهَمّاً إلى أن يموت.. ولهذا نرى التابعي الجليل (سعيد بن جُبير) يصفُّ الدنيا ووضْع الإنسان فيها ويُعطي صورتين، حيث يقول:-

﴿الدُّنْيَا متاع الغرور إذا ألْهَتك عن طلب الآخرة، أما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله وطلب الآخرة، فَنِعْمَ المتاع ونِعْمَ الوسيلة﴾

فلابد أن ننظر بأيّهما نتعلّق، وبأيّهما نتمسك، ولأيّهما نعمل، وقبل العمل علينا أن نتأكد ونتثبّت من رضا الله على العمل، لأنَّ الله أمَرَنا أن نتّبع سبيل من أناب، و(من أناب)

هو المتوجه إلى الله ﷻ، الذين التفتوا وعادوا إلى الله ﷻ، الذين رجعوا إلى الله ﷻ، الذين جعلوا الله الميزان لما يفكرون ولما يقولون ولما يعملون...

فاللهﷻ يريد من الشباب أن يتّبعوا هؤلاء الذين توجّهوا إلى اللهﷻ، بِكُلِّهم، بأنفسهم وعقولهم، بأرواحهم وأفكارهم، بسلوكهم وعبادتهم، الذين روّضوا أنفسهم بهذه العلاقة المقدّسة مع الله، الذين توجّهوا إلى الله ﷻ بفكرهم، بسلوكهم وأعمالهم الصالحة، يقول تعالى في سورة البلد، آية/**11-17**:-

﴿فَلاَ اقْتَحَمَ العَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَو إِطْعَامٌ فِي يَومٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَو مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوا بِالمَرْحَمَةِ﴾

هذه سمات من أناب، يعلم أنّ هناك عقبة لابد أن يجتازها إذا كان موطِّداً علاقته مع اللهﷻ إيماناً وحباً وطاعةً.. سلوكاً وشعوراً بالمسؤولية وأخلاقاً، تلك العقبة التي يصفها القرآن:-

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ﴾

لضخامتها ولأهميتها!.. ومما يمُكّن من اجتياز تلك العقبة أمور وهي:-

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ إنسان تُنجيه وتحفظ له حياته، تحفظ جسمه، تحفظ عقله وفكره، فتلك هي فك رقبة.

﴿أَو إِطْعَامٌ فِي يَومٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ يوم الحاجة ، يوم المجاعة والفقر، يوم الشدة والإبتلاء، يوم العسر وقلة الأموال وقلة الأغذية وقلة الدواء.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ أَو إِطْعَامٌ فِي يَومٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ بشكلٍ عام للقريب والبعيد، فإذا كان هناك يتيم، فهو أحوج.. فإذا كان يتيماً وقريباً يكون أفضل.

﴿أَو مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ ظهر عليه الفقر والحاجة والمسكنة، والفاقد لأتفه الأمور وأبسط الإحتياجات.. قال تعالى في سورة البلد، آية/**17**:-

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوا بِالمَرْحَمَةِ﴾

فمن سمات هؤلاء:-

أولاً: التواصي، فبعضهم من بعض، فلابد أن يتواصوا بينهم، بماذا يتواصون؟..

يتواصون بالصبر والطاعة والجهاد والرحمة!.. والصبر، صبر النفس وترويضها!..

فمرة يكون الصبر على الطاعة، ومرة يكون الصبر على المعصية، ومرة يكون الصبر في الإبتلاء والمحنة –وقد تحدّثت عن ذلك في كتاب (المسلم بين المحنة والإبتلاء)، وكتاب(مع الصبر والصابرين)–..

وإنّ من أهم سمات (من أناب) هي التواصي بأوامر الله ﷻ، حيث يقول الله ﷻ في سورة العنكبوت، آية/69:–

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

والجهاد والمجاهدة ثلاثة أنواع:–

–النوع الأول: مجاهدة العدوّ الظاهر..

–النوع الثاني: مجاهدة الشيطان..

–النوع الثالث: مجاهدة النفس..

فالذين أنابوا إلى اللهﷻ، وتواصوا بما أمر الله وجاهدوا عدوّهم الظاهري، والشيطان، والنفس، يأتي الضمان الإلهي لهم، يأتي الوعد الإلهي لهم:–

﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾

ضمان من الله تعالى لمن جاهد في سبيله مُتقرّباً إليه، أن يهديه السبيل والطريق المستقيم، بل أكثر من ذلك، يقول اللهﷻ في سورة محمد، آية/17:–

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوا زَادَهُمْ هُدَىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾

ليس أن يهديهم إلى السبيل وإنّما يزيدهم هدى وأكثر من ذلك، يُعطيهم التقوى (تقوى الله) الضرورية في علاقتهم مع الله ﷻ، والضرورية لاستقامتهم لأنّهم أنابوا وتوجّهوا إليه والله يقول في سورة الليل، آية/4–7:–

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾

يأخذ بيده إلى ما فيه اليُسْر والخير والصلاح والنجاة، وأما –والعياذ بالله– بالنسبة للبعيدين عن اللهﷻ، وعن الإنابة:– يقول تعالى في سورة الليل، آية/8–10:–

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾

لماذا؟.. لأنّ النتائج حسب المقدّمات، فهو ليس من باب الجبر، وإنّما من باب صغرى وكبرى ونتيجة، هنا كانت الصغرى والكبرى سليمة، ولهذا جاءت النتيجة سليمة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ ولمّا كانت الصغرى والكبرى غير سليمة، كانت النتيجة غير سليمة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى ﴾ ولهذا نرى السِمة الأولى لأمر الله ﷻ إلى الشباب هو اتّباع من أناب، تلك هي من أهم السمات:-

الهداية، مجاهدة النفس، فالنفس دائماً تحتاج إلى جهاد مستمر، يقول تعالى في سورة الشمس، آية/7-10:-

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَاْ﴾

والذي يُنيب إلى اللهﷻ، يكون واعياً وحافظاً ومُزكّياً لنفسه، مُلتفتاً إلى ربِّه وبمقدار التفاته إلى ربه وإنابته له، يكون محاسباً لنفسه بمقدار طهارة قلبه، يكون مزكياً لنفسه بمقدار هذه العلاقة التي لا يرى فيها إلاّ الله ﷻ، ولا يخشى إلا الله ولا يحسب حساباً إلا لله، يكون قد نقّى الطريق بينه وبين ربِّه وعَلِمَ أنّه لا يفيده إلاّ العلاقة السليمة مع الله، يقول تعالى في سورة الشعراء، آية/87-89:-

﴿وَلاَ تُخْزِنِي يَومَ يُبْعَثُونَ يَومَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونٌ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

القلب السليم: هو القلب المتوجّه إلى الله ﷻ، الذي أناب إليه وتوجّه صادقاً مخلصاً، ولهذا تكون النتيجة لهؤلاء الذين أنابوا، يقول تعالى:

﴿وَأُزْلِفَتِ الجَنَّةُ﴾ لمن؟..

﴿لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾

ويأتيهم الخطاب الإلهي، إسمعوا -أيُّها الشباب- في سورة ق، آية/31-33:-

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾

ونحن نتكلم عن الإنابة: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾

الجنة للمتّقين، والمتّقون للجنة!.. يرون فيها ما وعَدَهم الله ﷻ من الخير الدائم

والنعيم المستمر الذي لا يحدّه وَصْفٌ ولا يبلغه عقلٌ ﴿فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ﴾ نتيجة إنابتهم لله ﷻ ونتيجة استقامتهم كما يقول تعالى في سورة فصلت، آية/6:-

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيهِ وَاسْتَغفِرُوهُ﴾

وتريد أن تقول هذه الآية –يا أحبّتي الشباب–:-

إنّكم حتى لو استقمتم إلى اللهﷻ وأنبتم، فأنتم مُعرّضون للخطأ والزلل والإنحراف.. فهو العليم بنا لأنّه هو الذي خَلَقنا، وهو العليم بنا ولهذا تقول الآية:- ﴿وَاسْتَغفِرُوهُ﴾ بعد أن تستقيموا إليه، يمكن أن يصدر منكم الخطأ والمعصية والإبتعاد والغفلة!.. لماذا؟.. لأنّك إنسان.. فَعُدْ إلى الله واستغفر، فارجع إلى الله وتُبْ.. لأنَّ الإستقامة والإنابة مطلوبة دائماً، إذا كَبَونا، إذا عثرنا، نعود.. إذا ضعنا، إذا تُهنا، نرجع، فالطريق مفتوح.. وهذا من تمام اللطف الإلهي للجميع وخصوصاً للشباب!.. لأنَّ الشباب معرّضون للخطأ أكثر من غيرهم والله تعالى يقول في سورة هود، آية/112:-

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾

تلك الإستقامة، سِمة الأنبياء ومن معهم، فلنرى أنفسنا، هل نحن مع نبيّنا؟.. هل نحن كما أمَرَ الله نبيَّه بالإستقامة ومن معه من المؤمنين، أم لا؟.. لابد أن نُحاسب أنفسنا لنرى مقدار الإستقامة في عقيدتنا وديننا، في سلوكنا وأخلاقنا، فالإستقامة هي أساس كل شيء، جاء شاب إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فقال له:-

يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل بعد أحداً غيرك. قال الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿قُلْ آمنتُ بالله ثمَّ اسْتقم ﴾

إذن الإستقامة هي أساس كل شيء ولهذا يكون ثوابها عظيماً وأجرها كبيراً، يقول تعالى في سورة فصّلت، آية/30:-

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنزَّلُ عَلَيهِمُ المَلائِكَةُ أَلاّ تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُم تُوعَدُونَ﴾

كان قول النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) مطابقاً للآية الكريمة وهو تلميذ القرآن، قال له:-

﴿قُلْ آمنتُ بالله ثمَّ اسْتقم ﴾

كذلك تؤكد الآية على موضوع الإستقامة فتقول:-

أولاً:- ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ﴾

هذا الإيمان، إيمان بالوجود والوحدانية ولزوم الطاعة..

﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ تُمثّل إيمانهم عملياً، هؤلاء تنْزل وتتنزَّل عليهم الملائكة ﴿ألاّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا﴾

مقام كبير، الملائكة تتنَزَّل على الأنبياء، وهي تنْزل وتتنَزَّل على المؤمنين الذين استقاموا وأنابوا إلى الله!.. فالتفت إلى نفسك -أَيُّها الشاب- تريد أن تتنزَّل عليك الملائكة، فاستقم.. فاتّبع (سبيل من أناب) ولا تدع لنفسك وهواها سلطاناً عليك، ولابد أن تضع لها حساباً وتربيةً وتغذيةً حتى تفوز بنُزول الملائكة وعدم الخوف وعدم الحزن والبشرى بالجنة.. وهذا هو الفرق بين من يلتفت إلى نفسه ويريد اللهﷻ ويستذكر، وبين من يترك نفسه ناسياً ربَّه، وهذا ما يذكره تعالى بصورة رائعة في سورة النازعات، آية/ 37-39:-

﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى ﴾

هذا الذي ترك نفسه ولم يحاسبها، أهمل نفسه ولم يذكّرها وانقادَ وراء شهواته وميوله ولهذا صدق من قال:- (من أطاع هواه أعطى عدوّه مناه)..

أما الصورة الأخرى من قوله تعالى في سورة النازعات، آية/40:-

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى ﴾

إستقام، إستغفر وتغلَّب على هواه وحاسب نفسه..

في سورة النازعات، آية/41:-

﴿فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾

ولأنّ الهوى دائماً مقابل الإنابة والرجوع إلى الله ومقابل التوبة والاستغفار ، فهو ضد ذلك ولهذا يقول تعالى في سورة ص، آية/26:-

﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَومَ الحِسَابِ﴾

فالهوى يُنسيك الله والحساب ويُنسيك الآخرة إن اتبعته.. لأنّ الهوى يُمثّل الشيطان ويُمثّل ما يُمليه الشيطان في نفس الإنسان.. فأما أن تتبعه، فيُضلّك وتكون ممن آثر الحياة الدنيا وتكون النتيجة:-

﴿فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى﴾

وأما أن تتبع الله ﷻ وتنوب إليه بالإنابة والإستقامة والتوبة وتربية النفس ومحاسبتها وتكون ممن خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى وتكون النتيجة:-

﴿فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾

ولهذا نرى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يقول:-

﴿إِنَّ أخوف ما أخاف عليكم الهوى وطول الأمل﴾

لماذا يا أمير المؤمنين؟.. يقول:-

﴿أما الهوى فإنّه يصدُّ عن الحق﴾

الحق هو الله إذن الهوى يبعدك عن الله وأوامره وعن أخلاقه وسلوكه وعن قرآنه ونبيِّه وشريعته ﴿وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة﴾

إذاً المطلوب موازنة.. ليس منا من ترك آخرته لدنياه، وليس منا من ترك دنياه لآخرته.. يقول تعالى في سورة القصص، آية/77:-

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَة وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾

فمادام طول الأمل يُنسيك الآخرة، فهو وبال عليك، ولهذا كان الهوى أعدى أعداء الإنسان، وخصوصاً الشباب لأنّ درجة الهوى عالية، يقول تعالى يقول في سورة النساء، آية/135:-

﴿فَلا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَنْ تَعدِلُوا وَإِنْ تَلُووا أَو تُعرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعمَلُونَ خَبِيراً﴾

فاتباع الهوى ضد العدل لأنّه يقول: ﴿أَنْ تَعدِلُوا﴾

فأما الهوى.. وأما العدل...

فأما الهوى.. وأما الحق...

فأما الهوى والشيطان.. وأما الإستغفار والإنابة والتوبة والرجوع إلى الله...

الوصيـة الرابعة

الصلاة عبادة وتربية

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَردَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَو فِي السَّمَاواتِ أَو فِي الأَرضِ يَأتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾

إنتقلت الآيات المباركة الواعظة إلى الشباب إلى الجانب العملي، ومن الجوانب العملية هو: الجانب العبادي، وأهم العبادات هي: الصلاة:-فكما ورد في الحديث :-

﴿الصلاة عمود الدين﴾

فكما أنَّ الخيمة لا تقوم إلاّ بعماد في وسطها كذلك الدين -(والذي هو علاقة الإنسان مع ربِّه وعلاقة الأمّة بربِّها)- لا تقوم هذه العلاقة إلاّ بالصلاة..

﴿الصلاة هي قربان كل تقي﴾

﴿الصلاة عمود الدين إن قُبلت قُبِل ما سواها وإن رُدت رُدَّ ما سواها ﴾

الصلاة التي هي شرف وفخر للإنسان وقد ورد في الحديث:-

﴿إذا أردتَ أن تتكلم مع الله، فصلِّ.. وإن أردتَ أن يُكلمك الله، فاقرأ القرآن﴾

فعندما تُصلي، فأنت تتكلم مع الله، وهذا منتهى الفخر ومنتهى الوجود!.. فلا وجود لك بعيداً عن الله ﷻ، وإذا كان لا وجود، فلا فخر ولا اعتزاز ولا شرف.. فأنت تُحقق وجودك بعلاقتك مع الله ﷻ في الصلاة ولهذا عندما يأتي السياق القرآني المبارك إلى الجوانب العملية، أول ما يأمر:

-يأمر بالصلاة حيث يقول تعالى في سورة لقمان، آية/17:-

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾

وما تحمل هذه الكلمة من لُطفٍ وشفقةٍ ورحمةٍ، ورعايةٍ وعناية، ومن حبٍّ مع تأديب، ومن رعايةٍ مع تغذية، ولهذا يقول له:- ﴿يَا بُنَيَّ ﴾

فكأنَّ الأبناء يقولون له:-ماذا تأمر؟..

فيأتي الجواب:-﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾

نأتي إلى إقامة الصلاة، وما هو الفرق بين الأداء والإقامة؟..

الأداء:- إنَّك تأتي بصلاة الصبح ركعتين.. وصلاة الظهر أربع ركعات.. وصلاة العصر أربع ركعات.. وصلاة المغرب ثلاث ركعات.. وصلاة العشاء أربع ركعات، وبهذا تكون قد أدّيتَ صلاتك..

الذي يريده القرآن منّا وخصوصاً من الشباب الأعزاء، الإقامة وليس الأداء..

ومعنى الإقامة:-

1-إقامة الصلاة: تعني الإلتفات الكامل والمعرفة التامة بهذه العبادة، بأجزائها وأحكامها وشروطها، فهناك شروط لابد أن تتوفر للصلاة:-

أ-فالوضوء وصحة الوضوء وتمامية الوضوء، من أهم شرائط إقامة الصلاة، فإذا كنتَ لا تُحسن وضوءك، فلا يمكن أن تكون صلاتك صحيحة..

والغُسل:-من أهم شرائط إقامة الصلاة، فلابد أن يكون غُسلك صحيحاً بالشكل الشرعي المطلوب..

ولمّا نريد أن يكون الغُسل صحيحاً والوضوء صحيحاً لابد أن نعرف واجبات الوضوء وشرائط الوضوء والماء الطاهر والمكان الطاهر والمكان المُباح الغير مغصوب، وأن لا يكون هناك حاجز أو حاجب على أعضاء الوضوء أو أعضاء الغسل حتى يتم الوضوء والغُسل بشكله الصحيح..

ومن شرائط الصلاة كذلك المعرفة بالوقت، ودخول وقت الصلاة، فلا يجوز أن تُصلي مع عدم الإطمئنان من دخول وقت الصلاة ومعرفة وقت الصلاة..

ومن شرائط الصلاة:-القبلة والتأكد من القبلة، وصحة الإتجاه السليم إلى الكعبة الشريفة.. كلُّ ذلك شروط الصلاة وبتمامها تتم الإقامة أي إقامة الصلاة..

ب-معرفة الأركان والأجزاء:-فلابد أن يعرف المصلي أركان الصلاة والتي تبطل الصلاة بنقصانها عمْداً أو سهواً، جهلاً أو علماً.. وما هي الأجزاء التي تبطل الصلاة بتركها عمْداً ولا تبطل بنسيانها وبالسهو فيها من حيث الأجزاء، ومن حيث الأحكام، ومن حيث الشرائط..

لابد أن يعرف الشك بين الركعات، وأي الشكوك تبطل فيه الصلاة؟.. وأي الشكوك لا تبطل فيه الصلاة ويمكن إصلاحها وجبرها؟..

عليه أن يعرف سجود السهو وكيف يأتي بسجدتي السهو وما هي صيغته؟..

أن يعرف أحكام لباس المصلي وكيف لابد أن يكون لباس المصلي طاهراً مُباحاً غير مغصوب، وأن يعرف طهارة وإباحة مكان المصلي الذي يُصلي فيه وأن يعرف النطق الصحيح للصلاة من تكبيرة الإحرام وإلى نهاية الصلاة بقوله:-

﴿السلام عليكم ورحمة الله وبركاته﴾

فكل ذلك من أحكام الصلاة، فلابد للمصلي بشكل عام وللشباب بشكل خاص لأنّهم الأكثر تفتّحاً والأكثر ثقافةً واطلاعاً، عقلاً وفهماً واستيعاباً وهضماً، لابد أن يلتفتوا إلى هذه الأمور:-إلى الشرائط، وإلى الأجزاء، وإلى الأحكام حتى يتم معنى من معاني الإقامة ولنُسمّي هذا المعنى: المعنى الظاهري للإقامة...

2-المعنى الآخر لمفهوم الإقامة هو:- المطلوب من الأمّة المُصليّة، من الشباب المُصلّين ضمن الموعظة القرآنية للشباب هو الإقامة المعنوية، الإقامة الواقعية، الإقامة الإيمانية، الإقامة السلوكية، الإقامة الأخلاقية...

فأنت عندما تبدأ بصلاتك بقول: ﴿الله أكبر﴾ وهي تكبيرة الإحرام، لابد أن ترى علاقتك مع الله، ولابد أن ترى درجة عبوديتك مع الله، وهل أنت عبدٌ لله أم لا؟.. وهل أنت صادقٌ بما تقول: ﴿الله أكبر﴾ ؟.. فهو عهدٌ منك إلى الله، بأنَّه أكبر من كلِّ شيء..

﴿الله أكبر﴾ تعني: هو أكبر منك ومن غرائزك وميولك، ومن رغباتك ومن نزغاتك، ومن خلجات نفسك..

عندما تقول: ﴿الله أكبر﴾ يعني هو أكبر من الشيطان..

عندما تقول: ﴿الله أكبر﴾ يعني لا شيء في الوجود غير الله وإذا كان لا شيء في

الوجود غير الله، فلا يمكن أن يكون الانقياد إلاّ لله والتسليم والعبودية إلاّ لله...

فهل أنت هكذا عندما تقول: ﴿الله أكبر﴾ ؟.. أم أنَّك تقولها بلسانك وليس بعملك وسلوكك؟.. وهكذا عندما تبدأ بصلاتك وتذكر الله ﷻ بقولك:-

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فقد بدأت بإسمه العظيم وماله من الصفات العظيمة، فهو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، وهل أنت بعلاقتك مع الله ﷻ قد مثّلت هذه الرحمة بشيء؟.. قد تعلّقت بهذه الرحمة؟.. قد تسلّكت بهذه الرحمة، أليس الحديث يقول:-

﴿تخلَّقوا بأخلاق الله﴾

ومن ثم تبدأ بسورة الفاتحة، بالسبع المثاني التي عدلت نصف القرآن، لابد أن يكون المصلي ملتفتاً لما يقول، لما يقرأ، لما يتلفّظ، لحجم ما يقرأ، لحجم ما يتلفّظ، فتقول:

﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾

هنا، لابد أن تكون مُستحضراً للعبودية، تحمده على وجودك.. تحمده على إيمانك..

فالوجود والإيمان هما أساس كل نعمة، ومن ثم هي نعمةُ لا تعدُّ ولا تحصى، هل تذكرها؟.. هل تذكرها مع نفسك؟.. أم تقول، ماذا أعطاني الله؟.. أم يكون دائماً سلوكك سلوك التأفف والإعتراض؟.. لمن الحمد؟.. ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾

فهو ليس ربّك فقط، فهو ربُّ العالمين، ربُّ الجميع، ربُّ عالمك وكل العوالم، ربُّ عالم الإنس والجن، ربُّ العالم الموجود والذاهب والقادم، ربُّ عالم الحيوان والنبات والجماد، ربُّ عالم البحار، والكلُّ يُسبّح بحمده...

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ يأتي التأكيد ثانية وأكثر ما يصفُ نفسه بالرحمة، كل ذلك تأكيداً للأمّة وللشباب بشكلٍ خاص أن ارجعوا إليّ.. لأنّه رحيم وسترون عنده: ما يسعكم، ما يطمئنكم، سيملؤ عقولكم وأنفسكم وأرواحكم!..

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ القيامة، الآخرة، يوم الحساب، يوم التغابن، وعندما تقول:- ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فلابد أنَّك مؤمن إيماناً واضحاً بيوم القيامة ويوم الفصل ويوم الحساب ويوم التغابن ويوم الذي يصفه تعالى في سورة الحج، آية/2:-

﴿يَوْمَ تَرَونَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ﴾

اليوم الذي يكون فيه كما يقول تعالى في سورة يس، آية/**65**:-

﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ ﴾

يوم شهادة الأعضاء والأجزاء.. يوم يكون فيه كما يقول تعالى في سورة الصافات، آية/**24**:-

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤولُونَ﴾

يوم يكون فيه كما يقول تعالى في سورة التكوير، آية/**10**:-

﴿وَإِذَا الصُحُفُ نُشِرَتْ﴾

يوم الذي يظهر فيه كما يقول تعالى في سورة الكهف، آية/**49**:-

﴿الكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾

ذلك اليوم الرهيب، ذلك اليوم الغريب، ذلك اليوم المُخيف، ذلك اليوم الصعب.. لا الوالد يُغني عن ولده، ولا المولود يُغني عن والده.. هذا اليوم الذي ذكرته في صلاتك، هل قدّمت له؟.. أليس الله ﷻ يقول آمراً لنا كما في سورة الحشر، آية/**18**:-

﴿وَلتَنْظُر نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ﴾

هل نَظَرْنا ماذا قدّمنا لآخرتنا، لِغَدِنا، ليوم قيامتنا، ليوم وقوفنا بين يدي الله؟.. أليس النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول:-

﴿حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا﴾

فعندما نقول:- ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

ذلك إيمانٌ مِنّا بيوم القيامة، ومن لوازم الإيمان بيوم القيامة، الإعداد لذلك اليوم..

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

بعد أن كان الله ﷻ أكبر من كل شيء وهو الخالق والمُوجد والمُصَوّر، فلا تليق العبادة إلاّ له.. فهو الربُّ ونحن المربوبون.. وهو الخالق ونحن المخلوقون.. وهو المولى وهو الله ونحن العبيد.. ولا يكون من العبيد إلى ربهم وخالقهم إلاّ العبادة..

وقول: ﴿إِيَّاكَ﴾ يُعطي معنى الإنفراد، فلا تصحُّ العبادة إلاّ له.. وإن كانت لا تصحُّ

العبادة إلاّ له، فكذلك لا تصحُّ الإستعانة إلاّ به ﷻ فلابد أن تكون دائماً مع الله، ولابد أن تستعين دائماً بأوامر الله ونواهي الله وشريعة الله وأحكام الله وقرآن الله ونبيِّ الله.. فالإستعانة بالله وحده، والعبودية والطاعة لله وحده، والإستعانة بأوامره ونواهيه وحده.. وبعد ذلك تقول وأنت مُخاطب ربّك في صلاتك:-

﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّين ﴾

فأنت تتوجّه إلى اللهﷻ طالباً منه أن يهديك إلى صراطه، صراط الله، صراط القرآن، صراط محمد وآل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) صراط الصحابة الصالحين، صراط السلف الصالح، صراط العلماء الأتقياء، صراط الحق والعدل، صراط الإيمان والهداية، صراط الورع والأخلاق والتقوى.. وأن لا تكون من المغضوب عليهم ولا من الضالّين، وقيل في ذلك: اليهود والنصارى.. ويمكن أن نقول: هم الذين آمنوا وابتعدوا عن الله.. آمنوا بألسنتهم، وابتعدوا بسلوكهم وعبادتهم، فقد غَضِبَ الله عليهم..

والضالّين هم الذين لم يتوجّهوا إلى الله ولم يستجيبوا لله ولا لفطرتهم ولا لغريزتهم وتَنكّروا لداخلهم وخارجهم، فهم كالأنعام بل أضلُّ سبيلاً..

فأنت تدعو الله ﷻ أن لا يجعلك من هؤلاء، ممن آمن به وترَكه، ممن آمن به وعصاه، ولذلك فقد غَضِبَ الله عليه..

ومن ثم لابد أن تقرأ سورة بعد الفاتحة، وكانت أحبُّ السور إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله) وإلى عليٍّ وأهل البيت والصحابة هي: سورة التوحيد التي ورد أنّها تعدل ثلث القرآن..

فعندما كان الصحابة مجتمعين ومنهم الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري ﷺ فسأل أحدهم:-

من يقرأ القرآن في كل يوم؟.. ومن يصوم شهره؟.. ومن يقوم ليله؟..

انظروا إلى الرحمة الإلهية.. انظروا إلى العطاء الإلهي الغير محدود..

قال أبو ذرﷺ:-أنا.. أنا.. أنا..

قيل:- يا أبا ذر، كيف تقول (أنا) ونحن لا نراك تقرأ القرآن ولا تصوم وأنت تنام

الليل؟.

قال:-إنَّي سمعتُ حبيبي رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿من قرأ سورة التوحيد ثلاثاً، فكأنّما ختم القرآن، ومن صام أول الشهر ونصف الشهر وآخر الشهر، فكأنّما صام الشهر كله، ومن نام على طهارة، فكأنّما قام ليله﴾

ولهذا عندما تُكمل سورة الفاتحة تقرأ سورة التوحيد، أو تريد أن تقرأ سورة أخرى، لا مانع إلاّ أنَّ سورة التوحيد -(بعد أن قرأت نصف القرآن في سورة الفاتحة)- تُعادل ثلث القرآن.. بعد أن تذكر الله ﷻ بالبسملة تقول:-

﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ تأكيداً للإيمان..

﴿اللهُ الصَمَدُ﴾ القوي العظيم الذي تنتهي إليه كل الأمور.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوَاً أَحَدٌ﴾

ليس كمثله شيء، فهو لم يولد، ولا يلد وليس له نظير ولا عديل ولا مُشابه..

فوحده الخالق وما سواه من شيء مخلوق.. وحده الربّ وكل شيء سواه مربوب.. وحده المولى وكل شيء سواه عبيده..

وهكذا تركع، والركوع يُعطيك معنى الخضوع والخشوع ويُعطيك درجة من درجات العبادة، وتُعظّمه بركوعك، فتقول:-

﴿سُبحان ربِّيَ العظيم وبحمده﴾

بعد كل ما قُلت في صلاتك من تكبيرة الإحرام وقراءة سورة الفاتحة والتوحيد، تقول له:-

يا ربِّي، أنت العظيم.. لابد أن تُمنهج عظمة الله في حياتك..

وبعد ذلك تسجد، وهو الغاية في الخشوع والتذلل ونُكران الذات ونسيان النفس، ولهذا ورد في الحديث:-

﴿أقرب ما يكون العبد لله وهو ساجد﴾

لأنّه منتهى الخشوع والخضوع، لأنّه منتهى الذلّة والإستصغار بين يدي الله، لأنّه منتهى عدم الوجود لنفسه، ومنتهى عدم الوجود لنفسه، هو منتهى الوجود بين يدي الله ﷻ

وتقول له:

﴿سُبحان ربِّيَ الأعلى وبحمده﴾

بعد العظمة لا يليق العلو إلاّ بك..

وهكذا تأتي في الركعة الثانية وتتشهد وتؤكد الإيمان الكامل والمطلق بالوجود الإلهي والتوحيد:-

﴿أشهدُ أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له﴾

ولا يمكن الإيمان بالله إلاّ بالإيمان برسوله، لأنّنا لم نعرف الله إلاّ عن طريق رسوله:-

﴿وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله﴾

أنظر إلى نفسك: هل أنت عبد ك(محمد)؟.. لا يمكن أن تكون ك(محمد) ولكنك من أُمّته، مُتخلّق بأخلاقه ومُلتزم بشريعته ومُسْتَنٌّ بِسُنّته وتؤكد ما أمَرَ اللهﷻ بقوله في سورة الأحزاب، آية/56:-

﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمَاً﴾

فتقول بعد تشهُّدك: ﴿اللهُمَّ صَلِّ على محمد وآلِ محمد﴾

مؤكداً العلاقة الوثيقة ما بينك وبين محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) الذي أنقذك من الضلال إلى الهداية ومن الظلمة إلى النور ومن الجهل والجهالة إلى العلم.. وإذا كانت الصلاة ثلاثية، تأتي بالركعة الثالثة وتقرأ: أما الفاتحة وأما التسبيحات:-

﴿سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلاّ اللهُ واللهُ أكبرُ﴾

وتُكرِّرها ثلاثاً، مؤكِّداً هذا الإيمان ما بينك وبين ربِّك، مؤكِّداً علاقتك مع ربِّك، مؤكِّداً عبوديتك لربّك، مؤكِّداً تسليمك وثقتك بربِّك، مسبِّحاً حامداً شاكراً...

وهكذا تُسلِّم على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) وتقول:-

﴿السلامُ عليك أيُّها النبي ورحمة الله وبركاته﴾

فكما أنّ العلاقة وثيقة مع الله ﷻ لابدّ أن تكون العلاقة وثيقة مع رسوله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فتشهد له بالرسالة وتُسلّم عليه.. ومن ثم تُسلّم على الملائكة وعلى

المؤمنين وعلى نفسك إن كنت منهم، وإن كنت صادقاً في عبوديتك وعلاقتك مع ربك، فتقول:-

﴿السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ﴾

ومن ثم تقول:-

﴿السلام عليكم ورحمة الله وبركاته﴾

تُسلّم على الوجود كله المرتبط بالله تعالى، العابد لله تعالى، لأنّك عضو وجزء من هذا الوجود ولا يمكن أن تنفكّ عن هذا الوجود، الوجود المُعلّق والمُتعلّق بالله ﷺ...

نحن نتكلّم عن مفهوم ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ﴾ هذا المفهوم المعنوي الواقعي المطلوب من قوله ﷺ واعظاً للأمة وللشباب بشكل خاص...

المعنى الثاني لإقامة الصلاة:- كأنّ الآية تريد أن تقول: تهيّأ للصلاة.. والتي تعني وأقم الصلاة، وهذا المعنى يعطينا ضرورة أنّ الإنسان لابد أن يعيش الله ﷻ بشكل مستمر ودائم، وأن تتركّز الحالة عندما يريد أن يُقبِل على الله بشكلٍ مباشر، لهذا تريد أن تقول لك:-

تهيّأ لهذه المقابلة.. فانظر بين يدي من ستقف..

الإمام علي بن الحُسين عليه السلام كان يرتجف عندما يُصلي، يتغيّر لونه ويرتعد جسده.. فيُقال له: لماذا؟.. فيقول:-

﴿ألا تعلمون بين يَدي من سأقف﴾

لابد من استشعار الخضوع الإلهي في الصلاة، فلابد أن تُكيّف نفسك لهذه المقابلة، لابد أن تحاول أن تكون هذه المقابلة درساً لفكرك وروحك وقلبك ونفسك وسلوكك وأخلاقك.. لابد أن يكون وعاؤك أقرب للطهارة والنَّزاهة حتى يكون الإمداد الإلهي لك في صلاتك تثبيتاً وصبراً وقوّة.. ولهذا كأنَّ الآية تريد أن تقول:-

إِستعد لهذه الإقامة، وذلك بأن تؤكد جمل الإقامة المُستحبة المؤكدة (قبل الصلاة)..

3-المعنى الثالث للإقامة:-

بقوله ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ﴾ كلمة الصلاة أُخذت من معنى الصلة، فكأنّه تعالى يأمر الأمّة

والشباب بشكل خاص، لابد أن تكون هناك صلة بينكم وبين ربِّكم، هذه الصلة سواءاً كانت في القلب أو اللسان..

إذا كانت في القلب: فلابد أن يكون قلبك -(دائماً)- مُتعلّقاً بربِّك، أن تكون الصلة ما بينك وبين ربِّك مستمرة، لماذا؟..

لأنّه ﷻ يقول في الحديث القدسي:-

﴿لم تسعنِ السماوات والأرض ووسعني قلب عبدي المؤمن﴾

فإذا كان قلبك قد وسع ربّك، قد وسع الله ﷻ فلابد أن يكون هذا القلب متصل بالله ﷻ بشكل دائم ومستمر، أن تعيشه في قلبك وضميرك، في عقلك وروحك.. وبالتأكيد هذا النوع من الصلة والمعايشة لا يكون إلاّ بالإيمان والحبِّ والطاعة.. فلابد أن تُركّز هذه المعاني في داخلك: إيمانك بالله.. حبُّك لله.. طاعتك لله.. حتى يكون قلبك -(دائماً)- متعلّقاً بالله، وهذا كما يُسميه علماء الأخلاق (الذكر الخفي).. وهو ذِكر القلب، ولا حياة للقلب إلاّ به..

ومن ثم لابد أن نقول:- أنَّ القلب لابد أن يذكر شيئاً، فأما أن يذكر الله.. وأما أن يذكر الشيطان.. فانظر لمن تذكر؟..

والذكر الآخر هو: (الذكر الجلي).. وهو ذِكر اللسان وفيه يقول ﷻ في سورة البقرة، آية/**152**:-

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾

وفيه يقول ﷻ في سورة آل عمران، آية/**191**:-

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

هكذا يجب أن تكون على علاقة وصِلة وذِكْر مع الله ﷻ بقيامك وقعودك.. بِشرْبِك وأكْلِك.. بذهابك ومجيئك..

هذا الذي يكون مَن تركه كما يقول تعالى في سورة طه، آية/**124**:-

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُه يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى ﴾

هذا هو معنى الصلة مع الله ﷻ، تمام أنَّ هذه الصلة ستتركّز في وقت المباشرة –

(الدخول في العبادة)- ولكن أنت أيُّها المؤمن لابد أن تكون دائم الصلة مع الله ودائماً بعبادة مع الله...

4-المعنى الرابع للإقامة:-

بقوله ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ﴾ كأنَّ الآية تريد أن تقول للأمّة بشكل عام، وللشباب بشكلٍ خاص:

لابد أن تُقيم الصلاة في حياتك، المفاهيم التي أعطتك الصلاة إيّاها والحدود التي وضَعتْها لك الصلاة والإيمان الذي حصل ما بينك وبين ربِّك، حبّاً وعبوديةً وطاعةً وثقة.. لابد أن تكون الصلاة هي الحدَّ الفاصل في حياتك وسلوكك وأعمالك.. فالآية تريد أن تقول:-

أقِمِ الصلاة في كلِّ جزئية من جزئيات حياتك.. أقِمِ الصلاة في كلِّ مفردة من مفردات يومك، شهرك، سَنَتك، في مفردات حياتك كلّها..

لأنَّ الصلاة منهج ربَّاني، هذا المنهج الربَّاني الذي حصلتَ عليه في صلاتك وفي صلتك مع الله ﷻ لابد أن تُقيمه في حياتك وليس في وقت الصلاة فحسب وإنَّما العِبرة بما تُنتجه الصلاة من هذه العلاقة المقدسة ما بينك وبين ربِّك، وهذا ما يؤكد مفهوم:-

﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾

فلابد أن تنظر إلى معنى إقامة الصلاة وأنَّه لابد أن تُقيمها في حياتك.. هل نهتك عن الفحشاء والمنكر؟.. إن نهتك، فقد أقمتها.. هل جعلتَ الصلاة في داخلك وروحك مقياساً لكل شيء: لكلامك وقولك، لتصرفك وعملك وسلوكك، لبيعك وشرائك؟.. إن فعلتَ ذلك فقد أقمتها.. وإن لم تفعل ذلك، فيأتي الحديث النبوي الشريف:-

﴿لاَ خير في صلاَة لم تنهَ صاحبها عن فحشاء ومنكَر﴾

هذه تعليمات قرآنية إلى الأمّة بشكل عام وإلى الشباب بشكل خاص، لمفهوم الصلاة وأبعاد الصلاة ومعنى إقامة الصلاة، فمن أراد أن يمتثل الأمر الإلهي بقوله تعالى ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ﴾ فلابد أن يلتفت إلى كل هذه المعاني وإلى كل هذه الوجوه حتى يكون قد أقام الصلاة، لابد أن يلتفت إلى ظاهر الصلاة بشروطها وأجزائها وأحكامها...

لابد أن يلتفت إلى معاني الصلاة وإلى علاقته مع الله ﷻ في الصلاة وإلى مفاهيم

الصلاة وعطاء الصلاة من الإيمان والعبودية والاستعانة وطلب الهداية، ومن معاني الوقوف والركوع والسجود حتى يكون قد أقام الصلاة ظاهراً وباطناً...

ولابد أن يلتفت إلى موضوع الصلة ما بينه وبين الله ﷻ وكيف أنّ هذه الآية من معانيها: تأكيد الصلة الوثيقة ما بينه وبين العبد.. والحق يُقال: ليس هناك صلة ما بينه وبين الله غير اللهﷻ!.. لأنّ الله لابد أن يملأ عقله وداخله وكل وجوده ولا يدع مجالاً لصلة ما بينه وبين غير الله تعالى، فالصلة مع الله ومع خطوط الله، ومع أوامر الله وشريعته وقرآنه، ومع رسوله وما أمر به.. ولابد أن يلتفت إلى معنى إقامة الصلاة، بمعنى تأثيرها في سلوكه وأخلاقه وحياته وعمره، وبذلك يكون قد فهم شيئاً من معنى: ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ﴾...

الوصية الخامسة
الحياة ما بين المعروف والمنكر

﴿وَأْمُرْ بِالمعرُوفِ وَانهَ عَنِ المُنْكَرِ﴾

إنَّ من أهم مفردات التربية القرآنية للأمّة المسلمة المؤمنة –أفراداً ومجتمعات– هو ضرورة التبيّن لما تسمع، لما ترى قبل أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فلابد أن تتبين الأمر:–

ثم اأمُرْ بمعروف وانْهَ عن منكر...

أما إذا لم يتبين لك شيء ولم يحصل لك العلم واليقين والإطمئنان، فتكون من الذين عملوا بالظن!.. فإذا رآك شخص وسمعتَ منه كلمة السلام بقوله: (السلام عليك)، فلا تتهمه بالفسق والكفر وعدم الإيمان، وهذا ما نراه عند البعض!.. من السهولة عليه أن يُكفّر قسم من المسلمين، وأن يتهم قسم من المسلمين، وأن يُفَسّق قسم من المسلمين.. كل ذلك لماذا؟..

لأنَّه ليس من مذهبك.. لأنّه يرجع إلى مجتهد وأنت ترجع إلى مجتهد آخر.. إذن أين ضرورة احترام كل المذاهب، وأين ضرورة احترام أئمة كل المذاهب وتقديرهم؟!.. وأين

ضرورة احترام جميع العلماء والفقهاء؟!.. فلماذا التكفير؟!.. ولماذا الطعن؟!.. كَونه ذَهَبَ إلى قبر الرسول، وزار الرسول، وتَوسّل عند قبر الرسول!!.. أو زار قبر الأئمة أو قبور الأولياء ودعا الله ﷻ عندهم!!.. هل هذا يعني تكفيرهم؟.. أو أنّه يرجع إلى مذهب من المذاهب الإسلامية أو مجتهد من المجتهدين، فهل هذا يعني تكفيره؟!.. فهل هذا يعني تفسيقه؟!.. هل هذا يعني الطعن فيه؟!.. يقول الله تعالى في سورة النساء، آية/94:-

﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤمِناً﴾

وكأنَّ الآية ترى الحالة الواقعية لهذه النوعية من الناس وتريد أن تردَّ عليهم، وتقول:-

﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

بهذا التكفير والسبِّ والطعن والتفسيق للمسلمين والمؤمنين تريدون عرض الحياة الدنيا، تعتقدون أنّكم إن طعنتم بالآخرين، تفوزوا بالحياة الدنيا، والدنيا تكون لكم؟ ولهذا تقول الآية(94) من سورة النساء:-

﴿فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾

الذي يكون مع الله هو الفائز.. الذي يتّقي الله فيما يقول هو الفائز.. الذين لا يتّبعون الظنّ هم الفائزون.. الذي يتسرع بأحكامه هو الخاسر.. والذي يتسرع بطعنه بالمسلمين والمذاهب الإسلامية والفقهاء هو الخاسر.. وفوق ذلك يعتقد أنّه يأمر بمعروف وينهى عن منكر..

بعد ذلك تذكر الآية (94) من سورة النساء ما كان عليه الناس قبل الإسلام:-

﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾

لماذا تعودون إلى حالة الفوضى قبل الإسلام؟!.. ألا تجمعكم كلمة الإسلام؟!.. ألا تجمعكم كلمة (لا إله إلاّ الله) و (محمد رسول الله)؟!.. ألا تجمعكم الولاية لأهل البيت والتمسُّك بالصحابة الكرام والتمسك بالقرآن الكريم؟!.. فلماذا الطعن والإختلاف؟.. ولماذا التفسيق والتكفير؟.. إذن لابد من معرفة المعروف قبل الأمر به ومعرفة المنكر قبل النهي عنه، والمعرفة تأتي بعد التثبّت والإطمئنان واليقين.. يعني لابد من حصول العلم

بالمعروف والمنكر حتى تتمكن أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.. ولذلك لابد:-

1-أن تكون متّعظاً.

2-أن يكون في أسلوبك حكمة وأخلاق.

3-أن يكون هناك وضوح كامل للمعروف والمنكر حتى تتمكن أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر..

أما في حالة عدم الوضوح والظنّ، فلا يُسمح لك أن تأمر بمعروف وتنهى عن منكر.. أما إذا اجتمعت الأمور الثلاثة المذكورة سابقاً، يأتيك الأمر الإلهي بقوله تعالى في سورة لقمان، آية/17:-

﴿وَأْمُرْ بِالمعرُوفِ وَانهَ عَنِ المُنْكَرِ﴾

فالمعروف: هو العُرف الإلهي..

والمنكر: ما أنكره الله ﷻ..

وبعد ذلك تأتي الآية القرآنية/(70-71) في سورة الأحزاب وتؤكد:-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَولاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعَمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾

تلك هي النعمة الإلهية:-﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

الخطاب للمؤمنين بشكل عام وللشباب بشكل خاص..

﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ هنا المقصود (الإخلاص) لأنّه يأتي بعدها القول السديد، فلابد أن يكون أساس هذا القول السديد، الإخلاص لله ﷻ.. ومن لوازم الإخلاص لله ﷻ هو:-

الوضوح لما تقول.. والإطمئنان لما تقول..

ومن لوازم الإخلاص لله ﷻ القول السديد ومعناه:- أن تكون فاعلاً له قبل أن تكون آمراً به..

ومن لوازم القول السديد ألاّ يكون مضراً ولا مؤذياً لأحد لأنّه يقول:-

﴿ اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَولاً سَدِيداً ﴾

هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذي أساسه تقوى الله ﷻ ومخافته.. وأساسه كذلك العلم والوضوح وليس الظن والشبهة...

والقول السديد هو القول الواضح الذي ليس فيه لَبْس، قول يستوعبه السامع، قول مستند إلى آية قرآنية، قول مستند إلى حديث نبوي شريف، قول مستند إلى الأئمة الأطهار والصحابة الكرام، فذلك من تسديد القول..

فإذا كان هذا الأسلوب في القول السديد والذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكان أساسه التقوى، ستكون نتيجته كما قال الله تعالى في سورة الأحزاب، آية /7:-

﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعَمَالَكُمْ﴾

وبذلك يتفشّى الصلاح بين الأفراد وبين الأمّة، لأنّ السامع سواءاً كان فرداً أو مجموعة إن رأى الصدق من الواعظ –الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر– والإخلاص فيه، يستجيب إليه، ولهذا تكون النتيجة: ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعَمَالَكُمْ﴾

وبهذا يكون وضع الأمة من حَسَن إلى أحسن، حيث يُصلح لكم قلوبكم وأفكاركم، يُصلح لكم عقائدكم ونياتكم، يُصلح لكم علاقتكم مع الله ﷻ، يُصلح لكم عبادتكم، يُصلح لكم بيعكم وشراءكم، يُصلح وضع الفرد والأسرة والأمّة...

واللطف الإلهي يأتي أكثر فأكثر، فيقول تعالى في سورة الأحزاب، آية/71 :-

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾

لأنّه سيفتح صفحة جديدة مع الله، لأنّه كان تاركاً لواجب، وعندما أمَرْته بأداء هذا الواجب وبلّغته أمْر اللهﷻ وأمتثل، فمثلاً:-

كان لا يصلي وأخذ يصلي، أو كان لا يصوم وأخذ يصوم، أو كان يكذب وأخذ يصدق، أو كان يغتاب وترك الغيبة، وعاد إلى الله وأصلح ما بينه وبين الله وفتح صفحة جديدة مع اللهﷻ وتاب، والتوبة هي ماحية للذنوب وكما يقول الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴾

والتوبة هي الحسنة التي تمحو السيئات، ولهذا يقول تعالى في سورة الأحزاب، آية/71 :-

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾

وهكذا أيّها الشباب الأعزاء نرى ما في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من حياة وخير للفرد والأمة...

كان هذا ما يُشترط بالواعظين والآمرين بالمعروف بشكلٍ عام، ويُشترط بالمُتخصصين والمُتفرغين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعظ والإرشاد بشكل خاص، ولا ننسى تأكيد الآية على ضرورة أن يكون أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد الإيمان هو التقوى..

ولهذا نرى إمام المُتّقين، الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في أحدى خُطبه عن التقوى، وكيف أنَّ المؤمن الذي يُريد أن يلتزم طريق التقوى ويُربّيها في نفسه تربيةً إلهية ربّانية حتى يكون ملتزماً متّقياً واعظاً، ويكون أساساً له للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولهذا يقول في صفة المُتّقين:-

﴿قد أحيا عقله وأمات نفسه﴾

لابد أن يكون عقله سليماً، والعقل السليم لابد أن يكون في علاقة متصلة مع الله تعالى لابد أن تكون قيمُهُ قيم إلهية حتى يكون عقله سليماً، لابد أن يُغذّي عقله بالمفاهيم الإلهية حتى يكون عقلاً سليماً، يقول الإمام:-

﴿أحيا عقله﴾

لأنَّ العقل يعيش حالتين:- أما حالة حياة أو حالة موت..

حالة الحياة: إذا كان المقياس لديه هو الله تعالى، إذا كان المقياس لديه هو الأمر الإلهي، إذا كان المقياس لديه هو القرآن، إذا كان المقياس لديه هو محمد وآل محمد، إذا كان المقياس لديه الشريعة بكل ما فيها من أوامر ونواهٍ وأخلاق.. بذلك يكون قد أحيا عقله، وبذلك يكون قد اتّقى.. فهي مرحلة لابد أن تتوفر قبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

﴿قد أحيا عقله وأمات نفسه﴾

ومعنى أمات نفسه: هي النفس الأمّارة بالسوء، هي النفس التي تحاول أن تُلقي الإنسان في الخطأ والرذيلة والإنحراف وتحاول أن تُنْزل الإنسان من مستوى الكمال إلى مستوى الإنحطاط، من المستوى الإلهي الربّاني إلى المستوى الدنيوي الشهواني.. فكما

قلنا أنّ للعقل حياة وموتاً، فحياة العقل بعلاقته المستمرة مع الله ﷻ، وموت العقل بامتلائه بالأفكار الشيطانية، كذلك النفس لها حياة وموت، فعندما يقول الإمام:

﴿وأمات نفسه﴾

فبموت النفس تكون حياتها!.. فأنت بمقدار ما تتمكن من نفسك وتُميت ما تُلقيه نفسك من الغرائز والميول والشهوات، تكون قد أحييتها!.. لأنَّ هناك معادلة:-

بمقدار ما تُميت ما يُلقيه الشيطان في رُوعك، ستكون الصلة ما بينك وبين الله سليمة، لأنَّ النفس وعاء، أما أن يمتلئ من الشيطان أو يمتلئ من الرحمن!.. فإنْ أَمَتَّ ما يُلقيه الشيطان في نفسك وداخلك، عند ذلك تكون النفس مستعدة للإمدادات الإلهية والألطاف الربّانية، عند ذلك تحيا حياة إلهية!.. هذا أولاً.

ثانياً:-يقصد من قوله ﷺ:-

﴿وأمات نفسه﴾

بمعنى أنّه لا يرى لنفسه شيئاً ولا يحسب لنفسه حساباً.. بمعنى أنّه أنكر ذاته..

ولهذا نرى من أهم شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو: نكران الذات.. وهو أن ينسى الإنسان نفسه ويُبقي فكره وعقله عند كل ما يقوله قاصداً به الله ﷻ ولا يعتقد أنّه عندما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لأجل ذاته ونفسه أو ليُحقق وجوداً معيناً له أو مكانة بين الناس، ذلك من عبادة الإنسان لنفسه ومن التفاته لذاته، والإمام يقول:-

﴿وأمات نفسه﴾

فكما أنّه أحيا عقله لابد أن يكون أمات نفسه، فلا يرى لنفسه وجوداً بعيداً عن الله وأوامره ونواهيه ومبادئه وقيمه، لا يرى لنفسه وجوداً بعيداً عن كتاب الله وسُنّة نبيِّه، يكون ملتفتاً دائماً لقول الله تعالى في سورة الحجرات، آية/17:-

﴿قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ﴾

فإذا كنت لا تَمُنُّ، يعني ناكراً لِذاتك ولا تحسب لنفسك حساباً، والحساب كله عندك لله ﷻ.. إن حسبتَ ذلك، فالله يُعطيك العِزّة.. إن أمتَّ نفسك، فيحييها الله ﷻ بلطفه وهدايته وإمداداته وعطائه الذي لا ينضب حياة واقعية!.. أما إذا التَفَتَّ لنفسك وذاتك، فذلك هو أول موتك!.. إذن لابد أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر قد

أحيا عقله وأمات نفسه، لأنّها من ضروريات التقوى.. ويُكمل الإمام قوله:–

﴿حتى دقَّ جليلُهُ﴾

إنَّ المُتّقي بعد أن أحيا عقله وأمات نفسه الأمّارة بالسوء يصل إلى درجة (أن يدقَّ جليلُهُ) وجليله يعني جسمه، يعني ظاهره.. عند ذلك يكون حتى أكْله وشرْبه لله ﷻ، إذ أنّه يأكل ليعيش، وليس يعيش ليأكل، فغايته الله وليس الدنيا.. وغايته الرضا الإلهي وليس النعيم الدنيوي الزائل والذي منه الأكل والشرب، يكون له غاية ليس الأكل والشرب، بل الغاية هو الله.. الغاية طريق الله.. الغاية هي مرضاة الله ﷻ والتي تكون أساساً للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فليس الأكل والشرب هو غايته وإنّما غايته من الأكل والشرب ليتقوى على مرضاة الله ﷻ، ليُؤدي ما أمَرَ الله ولينتهي عمّا نهى الله، ليُؤدب نفسه.. ليُحيي عقله.. ليُميت نفسه.. وبعد ذلك يقول الإمام:–

﴿وَلَطُفَ غليظه﴾

وذلك لأنَّ الإنسان فيه جَنَبَة غلظة وفظاظة، فيه جَنَبَة عنف وشر، فيه جَنَبَة سوء، فيه جَنَبَة شيطانية.. عندما أحيا عقله وأمات نفسه وأخذ يأكل ليعيش، عند ذلك نمى في داخله الورع والتقوى، وجعل حياته للهﷻ، وإن كانت حياته للهﷻ، لابد أن تكون على قيم اللهﷻ وعلى أخلاق اللهﷻ.. أليس الأمر:–

﴿تخلّقوا بأخلاق اللهﷻ ﴾؟..

وهو يريد أن يكون متّقياً، فمن أولى منه بأن يتخلّق بأخلاق الله؟!.. ولهذا يقول الإمام:–

﴿وَلَطُفَ غليظه﴾

أي لَطّف جانب الغلظة فيه ويسّره، وجعل عوض الكلمة الغليظة الكلمة الطيبة.. وعوض الشر الخير.. وعوض الغضب السماح.. وعوض الفظاظة الأخلاق.. حتى يتمكن أن يكون آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر.. هذه القاعدة الضرورية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي لوازم التقوى، ولابد أن تكون القاعدة سليمة وقوية حتى ينطلق منها مع نفسه ومع الآخرين، حتى يكون متّعظاً فعلاً قبل أن يكون واعظاً.. وبعد ذلك يقول الإمامعليه السلام في التقوى ووصف المتقين:–

﴿وَبَرقَ له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق وسلك به السبيل ﴾

الإنسان عندما يكون ملتفتاً إلى نفسه وذلك بأن يُحيي عقله ويُميت نفسه ويجعل من أكله وشربه سبباً لحياته ولعبادته لله تعالى والتفتَ إلى أخلاقه ولَطّفَ غليظها، عند ذلك يعيش هذا الإنسان المُتّقي حالة نقاء وصفاء، وحالة روحية متميزة!.. ضمن هذه الروحية المتميزة والتي ضمنها الصفاء والنقاء يبرق له بريق لمع في سماء عقله وروحه وفكره﴿وَبَرقَ له لامع كثير البرق﴾ هذا اللامع أبان له الطريق وسلك به السبيل، لأنّه اتّقى الله ﷻ، لأنّه بَرَقَ له لامع كثير البرق، فاهتدى إلى هذا الضياء واتّقى الله ﷻ، والله ﷻ، يقول في سورة محمد، آية/17:-

﴿والَّذِيْنَ اهْتَدَوا زَادَهُمْ هُدَى﴾

لأنهم عاشوا الله ﷻ!.. ويقول في آية أخرى في سورة الكهف، آية/13:-

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدَى ﴾

فكما قلنا في الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَولاً سَدِيدَاً ﴾ لاحظ الإيمان أولاً.. والتقوى ثانياً.. وبعد ذلك القول السديد وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. فهذا اللامع هو عبارة عن الألطاف الإلهية والإمدادات الربّانية!.. وبعد أن التفت إلى هذا الإمداد الإلهي واللطف الربّاني يرى أنّ الأبواب أمامه كثيرة والمنافذ متعددة، ولهذا يقول الإمام:-

﴿وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار المُقامة﴾

فالأبواب أمامه متعددة إلاّ أنّ هذا الإلتفات لنفسه أولاً، وذلك بأن أحيا عقله وأمات نفسه وعاش حالة الصفاء ما بينه وبين الله ﷻ ونظر إلى اللطف الإلهي والإمدادات الإلهية، عند ذلك يعرف أنَّ الباب الذي لابد أن يطرقه أولاً.. وأن يَلِجه ثانياً.. ويتسلّكه ثالثاً.. هي باب الله ﷻ!.. هي باب السلامة والأمان!.. هي باب الرحمة والخير!..

وتَدَافعته الأبواب، كل باب تريد أن يدخل منها وأن يَلِجَ فيها:-

هناك باب كبير، وأبواب صغيرة من جانب الباب الكبير هُنَّ: حبُّ المال، وحبُّ الجاه، وحبُّ النفس، وحبُّ الشهوات والميول والغرائز..والحال أنّه:-

﴿لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحبُّ إليه من نفسه وأهله وماله ﴾

والجانب الآخر: باب لا يوصف!.. وهو الباب الإلهي وفيه أبواب متعددة:-

الخير والرحمة والإطمئنان والسعادة!.. ولكن بعد أن رأى الإمدادات الإلهية تَوجّه إلى باب السلامة، باب الله ﷻ ودار المقامة أي دار الآخرة ويعني حَسَبَ للآخرة حساباً، عرف أنَّ الدنيا دار ممر والآخرة دار مقر، فعرف أنّه لابد أن يتزود من دار ممره إلى دار مقره، بماذا يتزود؟..

﴿تزوّدوا فإنَّ خير الزاد التقوى﴾

ويعلم أنَّ الآخرة هي الحياة الواقعية والمستمرة والباقية، فهو عندما تدافعته الأبواب، ذَهَبَ إلى باب السلامة ودار المقامة، باب السلامة في الدنيا ودار المقامة في الآخرة، فهو بتقواه:-

أولاً: سَعُدَ بدنياه...

ثانياً: سعُد بدار الإقامة في آخرته...

وبعد ذلك يقول:-

﴿وثبُتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه﴾

هكذا عاش حالة المجاهدة مع النفس، فصفّى ما بينه وبين ربه، هذا أولاً.. وجعل من أخلاقه أخلاقاً ربّانية، عند ذلك نظر بعقله وتفكيره، فرأى الإمدادات الإلهية تترى عليه، فصار وعاءاً لتلك الإمدادات الربّانية، هذا ثانياً.. وأغلق الأبواب إلاّ باب واحد وهي باب الله، وفيها السلامة في دنياه والخير في آخرته، هذا ثالثاً.. عند ذلك ثبتت رجلاه وقويت ساقاه، عند ذلك اطمأنّ قلبه...

فبعدما كانت رجلاه تذهبان يميناً وشمالاً، وبعد أن كانت ساقه ترتجف، وبعدما كان قلبه دائماً يخفق، فلا يدري أين يتوجّه، وإلى أين يذهب؟.. عند ذلك علم أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه، عندها اتّقى الله، وعند ذلك سَعُدَ وعاش الخير والراحة والطمأنينة، وعند ذلك عاش دنياه وعاش آخرته، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه..

لأنّ الحالة النفسية دائماً تؤثّر في الظاهر، فعندما تكون الحالة النفسية مطمئنّة، يكون الظاهر مطمئنّاً.. وعندما تكون الحالة النفسية قلقة، يكون الظاهر قلقاً.. هنا اطمأنّ..

وحالته النفسية عامرة مع الله تعالى...

﴿وثبُتت رجلاه﴾

كناية عن الطمأنينة، يعني عرف طريقه الذي يسير فيه، عرف مبتدأه ومنتهاه، عرف أنّه لابد أن يكون أوّله التقوى، لذلك حصل له الأمن والاطمئنان.. فهو يعرف أن لا راحة إلاّ مع الله، لا أمن إلاّ بالله، فهو استعمل قلبه بالخير وتَمكّن أن يُحيي عقله ويُميت نفسه.. إستعمل قلبه وعرف حقيقة دنياه والتي لابد أن يكون كل ما فيها، أن يعيش مرضاة الله ﷻ.. إستعمل قلبه وعلم أنَّ الخَلْق هو خَلْق الله وحده وكلنا عبيد لله، فلابد أن نتخلّق بأخلاق مولانا وخالقنا.. إستعمل قلبه وجعله وعاءاً لله، ألم يقل الحديث القدسي:-

﴿لم تسعنِ أرضي وسمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن﴾

إستعمل قلبه وأسعدَ نفسه وصار في سلامة من دنياه وخير في آخرته.. إستعمل قلبه وأرضى ربّه، رضا الله الذي هو أسمى من كل شيء وأرفع من كل شيء.. رضا الله الذي تُعبّر عنه الآية عندما تذكر نعيم الآخرة:-

﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَر﴾

فَرِضَا الله أكبر من الجنة وما فيها، رضا الله لا يُقاس بأي شيء، هذا هو المُتّقي..

وعندما أتكلم عن رضا الله، فهناك مقياس جميل لدرجة رضا الله عليك، يسأل أحد الشباب أحد الأئمة الأطهار(عليهم السلام):-

-أُريدُ أن أعرف رضا الله عنّي؟..

قال:-﴿أُنظر مقدار رضاك عن الله لتعرف رضاه عنك﴾

مقدار رضاك عن الله يعني: مقدار عبوديتك وانصياعك لله، تسليمك وخشوعك وخضوعك لله، رضاك بقدره وقضائه.. بمقدار ما ترى ذلك من نفسك، إعلم أنّه راضٍ عنك..

عند ذلك يكون مُتّعظاً، هذا أولاً.. ويكون مُتيقناً، هذا ثانياً، مُتيقناً لما يقوله، لما يأمر به، لما ينهى عنه ولا يتّبع الشبهات والظنون والأهواء، لأنَّ تقواه تحجزه عن ذلك..

والإمام عليه السلام يقول

﴿لا ورع كالوقوف عند الشبهة ولا زهد كالزهد عند الحرام﴾

فالمفروض أنّ المتّقي الورِع يقف عند الشبهة، لا يستعجل بظنونه قبل قوله، قبل عمله.. فلا يظنّ بالآخرين سوءاً.. ولا يقول السوء.. ولا يتهم الآخرين بالسوء.. فإن لم يكن هناك ورع كامل لما تأمر، فلا تأمر بالمعروف!.. لأنّ الإمامﷺ يقول:

﴿إنّما الأمور ثلاثة:- أمر بيّن رشده، فيتّبع. وأمرٌ بيّن غيّه، فيجتنب. وأمر مشكل، فيردّ حكمه إلى الله﴾

عندما يكون هناك علم واضح: فأمُرْ بالمعروف وانهَ عن المنكر..

عندما يكون هناك التباس وشبهة وعدم وضوح، فلا تقل شيئاً واجعل الحكْم لله ﷻ، ولهذا يقول في الحديث:-

﴿مَن تركَ الشبهات نجا من المحرمات﴾

لأنّك إنْ أمرتَ بمعروف وأنت على شبهة ستقع في الحرام.. وكذلك بالنسبة للمنكر، فإنْ نَهيت وأنت على شبهة ستقع في الحرام.. ولهذا لابد أن يكون الأمر بيِّن عندك...

ثم نرى أنّ اللهﷻ يؤكّد على مسألة مهمة وهي لابد أن تكون عارفاً ومُطبّقاً للحُكم الشرعي قبل أن تأمر غيرك به وذلك بقوله في سورة الصف، آية/2-3:-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتَاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾

هذا يدلُّ على ضرورة أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر مُتّعظاً سالكاً عملياً طريق المعروف حتى يكون آمراً به، أما إذا لم يُطبّق ولم يمتثل للأمر الإلهي وإنّما يقول للآخرين: إفعلوا ذلك ويأمرهم بلسانه ما يُخالف عمله، وهذا من الآفات الإجتماعية والسلوكية والأخلاقية لابد من الإنتباه والإلتفات إليه، لابد من التأكيد على ذلك ومحاسبة النفس والضمير، أن لا يتبجح مع الآخرين بأوامر وهو يُخالفها، ذلك هو عكس المطلوب القرآني.. القرآن يريد منك أن تعمل وتلتفت إلى نفسك قبل غيرك كما في سورة التحريم، آية/6:-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾

وبعد ذلك:- ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾

لابد أن تعرف المعروف وتعمله، وأن تعرف المنكر وتنتهي منه، ثم تأمر الآخرين بفعل المعروف وتَرْك المنكر.. الإنسان بسلوكه يكون بشكل معين وبكلامه يكون بشكل آخر، تلك هي نوع من أنواع الإزدواجية!.. فهو بسلوكه لم يأمر نفسه بمعروف ولم ينهَ نفسه عن منكر، ومع الآخرين يحاول أن يأمرهم وينهاهم، والله ﷻ يقول في سورة الصف، آية/2:-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾

وهنا المقصود من الإيمان هو: الإيمان الظاهري، ولكنَّ المؤمن واقعاً هو الذي دائماً يتطابق قوله مع عمله، وأوامره للآخرين مع تطبيقه، ولهذا لابد أن يكون الأمر بالمعروف بالسلوك قبل القول، وبالعمل قبل الكلام، وبالتطبيق قبل الأمر.. والآية تقول:-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا﴾

هؤلاء آمنوا ظاهرياً بألسنتهم وأخذوا يأمرون الناس بالمعروف وينهون عن المنكر، جاءهم التوبيخ الإلهي:- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا﴾

أنتم الذين أظهرتم الإيمان، طبِّقوه أنتم أولاً في سلوككم وأخلاقكم وأعمالكم، ثم تأمرون الناس بالمعروف وتنهون عن المنكر..

أما الإيمان الواقعي فهو الذي دائماً يُطابق العمل مع القول كما عرّفه الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام):-

﴿الإيمان: إعتراف بالجَنان وقول باللسان وعمل بالأركان ﴾

ونكمل الآية/2-3 من سورة الصف:-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقْولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾

﴿كَبُرَ مَقْتاً ﴾ أي هذا العمل وهذا النوع من التصرف والتبجّح، هذا مما يزيد في ابتعادكم عن الله، مما يزيد في فسقكم وانحرافكم ومعصيتكم، وهذا تأكيد آخر على ضرورة تطابق القول مع العمل وتطابق الكلام مع التطبيق، فنرى الآية تقول وتؤكد أن يكون القول بعد الفعل، والأمر بعد الفعل، والنهي بعد الإمتناع.. ولهذا نرى في أخلاق أهل البيت(عليهم السلام) حيث يقول الإمام جعفر الصادق(عليه السلام):-

﴿كونوا لنا دُعاة صامتين ﴾

أي بعملكم وسلوككم وتصرفاتكم، بورعكم وتقواكم، قبل كلامكم وأمْر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ولهذا نرى الله ﷻ يقول في سورة البقرة، آية/44:-

﴿أَتَأمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَونَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلا تعقِلُونَ﴾

كيف يمكن للإنسان أن يأمر الآخرين بأوامر البر؟!.. (وذَكَرَ البرَّ لأنّه يجمع كل الأوامر الإلهية)، فالآية موجّهة إلى أولئك الناس الذين يأمرون الآخرين بالبرِّ وفي تقديرهم أنّهم يأمرون بمعروف ولكنهم نسوا أنفسهم، يأمرون الآخرين وهم لا يُطبّقون، يأمرون الآخرين وهم لا يفعلون بما يأمرون به الآخرين، هذه تمام الإزدواجية!.. يُظهر شيء وفي داخله شيء آخر.. والآية تريد أن تقول له ذلك وهو:-

كيف تأمرون الناس بشيء وأنتم لا تفعلونه؟!.. تأمر الناس بعدم الكذب وأنت تكذب، وتأمر الناس بحُرمة الغيبة وأنت تستغيب، تأمر الناس بحُرمة النميمة وأنت تَنِم، وتأمر الناس بحُرمة البهتان، وأنت تبهت، سواء كنت تستغيب المؤمنين، وتبهت المؤمنين والعلماء والمجتهدين!..

﴿أَتَأمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَونَ أَنْفُسَكُمْ﴾

وبعد ذلك تُعطيهم الآية القرآنية الحُجّة الدامغة على فِعْلهم الشنيع، فتقول:-

﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ﴾

أنتم آمنتم بالله ورضيتم بالله ربّاً وبالقرآن كتاباً وبِمُحمّد نبيّاً وبِعَلِيٍّ إماماً، فكيف يصدر منكم هذا العمل؟!.. هنا تكون الحُجّة أقوى، لأنّك بعد أن قرأتَ الكتاب، عرفتَ ما فيه، عرفتَ أنَّ الغيبة والنميمة والبهتان والكذب وتَرْك الصلاة وتَرْك حقوق الله كلها من الكبائر، ولهذا تؤكد الآية بقوله تعالى:-

﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾

أين عقولكم؟.. أين فكركم؟.. إذا كان ما تأمرون به صحيحاً، فلابد أن تُطبّقوه أولاً، ثم تأمرون الآخرين به.. والقرآن يُخاطبك أولاً عندما تقرأه، ومن ثم انقل هذه الأوامر إلى الآخرين، لابد أن تقيَ نفسك أولاً، ثم الآخرين بعدك..

لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتيَ مثلَه عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ

فنفهم من موضوع وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضمن الموعظة القرآنية إلى الشباب:-

أنّه لابد أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أمَرَ نفسه ونهاها عن المنكر أولاً، ويُطبّق بما يأمر.. أي لابد أن يكون واعظاً مُتّعظاً، ولذلك تقول الآية الكريمة:-

﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾

فعليه أن لا ينسى نفسه، فيأمرها أولاً قبل الآخرين، لأنّ نفسه أحبُّ الأنفس إليه..

فقد ورد أنَّ رجلاً طلب من الإمام موسى بن جعفر عليه السلام وقال له:-عِظني يا بن رسول الله، فأجابه الإمام:-

﴿أَحْسِن لمن أحببت﴾

قال: يا بن رسول الله زِدني، قال:-

﴿يا هذا، إعلم أنَّ نفسك أَحبُّ الأنفس إليك، فأحسن إليها بطاعة الله﴾

يعني: لابد أن تأمر نفسك أولاً بطاعة الله، أن تأمر نفسك بالمعروف وتنهى نفسك عن المنكر.. ثم تأتي إلى الآخرين وتأمرهم وتنهاهم، وإن لم تفعل ذلك، فأنت كما يقول الله تعالى في سورة الصف، آية/3:-

﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾

وإن لم تفعل ذلك، يأتيك التوبيخ الإلهي، كما في سورة البقرة، آية/44:-

﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾

ويُروى أن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) عندما أُسري به، قال:-

﴿مررت ليلة أُسري بي على أُناس تقرظ شفاههم بمقاريط من نار، فقلت:- من هؤلاء يا حبيبي يا جبرائيل؟.. فقال:-هؤلاء خطباء من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ﴾

لماذا؟.. لأنّه يكون عند ذلك الأمر بالمعروف تبجُّح.. عند ذلك يكون الأمر بالمعروف استهزاء بالله، لأنّك تحمل الأوامر الإلهية للناس وأنت لا تطبّقها..

وهكذا لابد أن يكون وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يتطابق مع الإنسان الآمر، ثم يبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. أما إذا كان غير مطبّق لذلك وغير مستجيب للأوامر الإلهية في سلوكه وأخلاقه.. أما إذا كان هو لم يأمر بالطاعات ولم ينهها عن المعاصي والمحرمات، فكيف له أن يأمر الآخرين بالطاعة وينهاهم عن معصية، وإذا حصلت هذه الإزدواجية في السلوك، يدلُّ ذلك على الإبتعاد عن الله ﷻ ويدلُّ على طلب الدنيا وما فيها من جاه أو سمعة أو كلمة لَمّاعة تُشير إليه، وهل تُغني هذه الأمور عن الله شيئاً؟.. وهل تزيدك في صحيفتك إلاّ بُعداً ومقتاً ومعصيةً للهﷻ؟..

نعود إلى قوله تعالى في سورة البقرة، آية/44:-

﴿أَتَأمُرُونَ الناسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَونَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾

ومن المؤكد أنَّ القرآن هو الشاهد علينا يوم القيامة، وأنَّ أوامره هي الشاهدة علينا يوم القيامة، وأنَّ صحفنا هي الشاهدة علينا يوم القيامة، وأنَّ أعضاءنا هي الشاهدة علينا يوم القيامة، فعندما تقول الآية:-

﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ﴾

هذا تأكيد على ضرورة:-

أولاً: لزوم تطابق ما نقرأه في الكتاب على أنفسنا وسلوكنا ومن ثم على الآخرين..

ثانيا: تذكيرٌ لنا أنَّ هذا الكتاب الذي أنتم تقرؤونه الآن، سيكون الشاهد عليكم يوم القيامة، يوم تلقون الإلهﷻ..

﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾

يعني: أفلا تعلم أنَّ هذا القرآن موجّه إليك قبل أن يكون موجّه لغيرك من خلالك؟..

﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾

أنَّ هذا القرآن شاهد عليكم يوم القيامة..

إذن فلابد من التأكيد على ضرورة الإتّعاظ قبل الموعظة، والإئتمار قبل الأمر للآخرين، والإنتهاء قبل النهي للآخرين، وذلك حتى يكون أمْره ونهيه للآخرين مُؤثراً فيهم.. لأنَّ الذي لم يأمر نفسه ولم يُربِّ نفسه ولم يتمكن من نفسه، فكيف له أن يُربّي ويأمر الآخرين؟.. وأن يتمكن منهم ويُقنعهم بعمل الخير؟.. فالإنسان دائماً يُربّي نفسه لأنّها هي

الميدان الأول له، سلوكه وأخلاقه وفِعْله هو الميدان الأول له، فبعد أن يُكمل الميدان الأول له ينتقل إلى الميدان الثاني، أي الأقرب فالأقرب وكما يقول تعالى في سورة الشعراء، آية/214:-

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾

حيث يقي الآخرين كما وقى نفسه.. وهنا، الآخرون يلتفتون إلى هذا الآمر وهذا الواعظ، هل هو فعلاً تَسَلّكَ بما يأمر؟.. وهل هو فعلاً وعظ نفسه قبل أن يعظ الآخرين؟.. وهل فعلاً يتطابق سلوكه مع قوله؟.. إذا رأوا ذلك منه، ورأوا الإخلاص في قوله، عند ذلك يكون القول نافذاً، والأمر مؤثراً، والموعظة داخلة إلى القلب.. لأنّها خرجت من قلب مؤمن مُتّعظ مُخلص ولهذا تدخل إلى القلب، وكما ورد:

﴿ما يخرج من القلب يدخل في القلب، وما يخرج من اللسان لا يتعدى الآذان﴾

فعند ذلك تكون الموعظة جميلة ولطيفة وهنيئة، لذيذة وهادئة..

أما إذا كان الشخص الذي تعظه يرى الإثنينية في عملك، وعدم الوحدة ما بين الفكر الذي تطرحه، والأمر الذي تأمر به وبين سلوكك وعملك وتصرفاتك:-

فأولاً: لا يأتمر بأمرك ولا يتّعظ بموعظتك..

وثانياً: يسيء الظن بك..

وثالثاً: يمكن أن تُبعده عن الدين، لأنّه يتصور أنّ الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، هم هكذا ﴿تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ ،تُعطي الصورة مُشوّهة عن الواعظين والمبلّغين وعن الذين يدعون إلى الله ﷻ وإلى نبيِّه وقرآنه، فلابد أن تكون واعظاً مُتّعظاً، وأن يكون الأساس في أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر هو الله ﷻ وحده وليس تحقيقاً لِذَاتك، وليس التفاتاً لنفسك.

لماذا؟..

لأنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أمْر عبادي، والأمر العبادي يُشترط فيه النية والإخلاص لله ﷻ، ومعنى النية والإخلاص لله ﷻ: نُكران الذات، يعني أن لا تبتغي من وراء أمْرك بهذا المعروف ونهيك عن المنكر لك شيئاً وإنَّما هو:-

أولاً: لله ﷻ ولوجه الله ولأنَّ الله قد أمَرك بهذا..

وثانياً: خدمة للناس وللمؤمنين، بأن تُوضّح لهم المعروف وتُحدد لهم المعروف وتُوضّح لهم المنكر وتُبيّن ما فيه من مفسدة..

فالإخلاص ونية القربة الخالصة ما بينك وبين ربّك فيما تقول وما تفعل، وما تأمر وما تنهى شرط ضروري، وكما قلت هو نكران الذات، فلستَ أنت الآمر ولستَ أنت الناهي، ولكن الله الذي أمَر والذي نهى، وأنت المُبلّغ وعليك إيصال هذا الأمر وهذا النهي، فالأمر هو أمْر إلهي..

فعندما تأمر الآخرين بالصلاة –(وهو من أهم المعروف)– هو أمْر إلهي.. وعندما تأمر الآخرين بالصدق –(وهو من أهم المعروف)– هو أمْر إلهي، وهكذا.. وهكذا..

وعندما تنهى الآخرين عن المنكر والفحشاء وعن الكذب والغيبة والنميمة، كلها نواهٍ إلهية، ولكن أنت توصلها، فلابد أن تنكر ذاتك.. ويبقى شيء واحد، إن أخلصت لله ﷻ في توضيح أوامر ونواهي الله ﷻ وإذا كان هناك إخلاص، فلك الشرف في ذلك.. أما أن ترى الفضل لك على الآخرين لما تأمر وتنهى، فليس لك الفضل كما يقول تعالى في سورة الحجرات، آية/17:–

﴿قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ﴾

وهذه آفة لابد أن نلتفت إليها، أنَّ من يتعلّم كلمة أو اثنتين أو ثلاثة، أو حُكمين أو ثلاثة ويأمر به أو يعظ الناس، يرى له منْزلة ومكانة، والحال أنَّ المنْزلة والمكانة بمقدار علاقتك مع الله وصدقك مع الله، بمقدار صفائك وطاعتك لله ﷻ، بمقدار الانصياع الكامل التام ما بينك وبين الله.. وتلك علاقة ما بينك وبين ربّك، ليس للناس دخْل فيها، وأنت كلما أكّدت علاقتك ما بينك وبين ربّك، فلابد أن تتجسد مع الآخرين بالتواضع والكلمة الطيبة، هذا أولاً..

وثانياً: بعد أن تكون مُتّعظاً لابد أن تُعطي الخُلُق الإسلامي، الخُلُق القرآني، الخُلُق المحمدي، خُلُق الأئمة الأطهار، خُلُق الصحابة الكرام في كيفية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وهذا يعني الكلمة الطيبة كما يقول الله تعالى في سورة النحل، آية/125:–

﴿أُدْعُ إِلَى سَبِيْلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ﴾

فنتكلم مع الآخرين بمستواهم، بذهنيتهم، بكلمات طيبة هادئة لطيفة محببة إلى نفوسهم وقلوبهم وأرواحهم، حتى تكون الموعظة منك لهم موعظة لذيذة، تقع موقعاً جميلاً في دواخلهم، وحتى يكون الأمر الصادر منك إليهم والنهي الصادر منك إليهم مُحبّب لهم.. فمن دون خشونة ومن دون استعلاء، بل بمحبة ورأفة وتَحنّن.. فبعد أن تكون مُتّعظاً، لابد أن تُحسن صيغة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنّك إن أحسنتَ وكان قصدك الله، فَسَوف تُثاب.. لأنّه عبادة، وإلاّ إن كان قصدك لنفسك، فَسَوف تُعاقب.. لأنّه رياء، وإن لم تُحسن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمكن أن تُبعد الشخص عن الله ﷻ وتُبعده عن رسوله الكريم وقرآنه العظيم، فكلنا قد سمع عن مُحاورة الإمامين الحسن والحسين(عليهما السلام) مع رجل رأوه لا يُحسن الوضوء، ذهبا إليه وقالا له:-

﴿عمّنا الشيخ: أُنظر أيّنا يُحسن وضوءه﴾؟..

وتوضئا أمام الشيخ الكبير، وبعد الوضوء، قال الشيخ الكبير:-

فداكما أبي وأمّي، كلاكما يُحسن الوضوء، ولكن عمّكما الشيخ لا يُحسن الوضوء..

صورة رائعة لكيفية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهكذا بقية الأئمة والصحابة وبقية الفقهاء والعلماء..

ثالثاً: أن ترى الوقت المناسب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا ترى الشخص في وقت يكون فيه منْزعجاً أو منفعلاً وتأتي إليه وتحاول أن تأمره بمعروف أو تنهاه عن منكر، وإنّما من الحكمة أن ترى الوقت المناسب حتى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، هذا كله إذا كان المعروف عندك واضحاً، والمنكر عندك واضحاً.. أما مع عدم الوضوح لما هو معروف، ولما هو منكر، فلا يجوز لك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فالله ﷻ يقول في سورة الإسراء، آية/36:-

﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤولاً﴾

نرى الكثيرين يأمرون بِعُرف وليس بمعروف، بِعُرْفهم وعقليتهم ولهذا نرى هناك كثير من الأحكام تصدر من أُناس وهي غير صحيحة وهي باطلة في كل تصرفات الحياة، والذي يحضرني هنا:-

هناك كثير من القائلين أنَّ عِدّة المرأة فيها كذا.. وكذا.. وكذا من الشروط التي لا أساس لها من الصحة في الشرع.. وأنّ أربعين الميت تحتاج كذا.. وكذا من الأمور التي لا أساس لها من الصحة في الشرع.. وأنَّ السنوية التي تمرُّ على وفاة الإنسان تحتاج إلى كذا.. وكذا وليس لها أساس في الشرع، وهناك الكثير من الأمثلة التي لا تُعدّ ولا تُحصى، ولكن الذي نؤكد عليه هو ضرورة معرفة المعروف قبل أن تأمر به، وضرورة معرفة المنكر قبل أن تنهى عنه، ولهذا يقول تعالى في سورة الإسراء، آية/36:-

﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾

لا تتبع شيئاً ليس لك به علم.. لا تفعل شيئاً ليس لك به علم.. لا تؤمن بشيء ليس لك به علم.. لا تقل شيئاً ليس لك به علم.. وبعد ذلك يأتي التحذير والوعيد لمن يقول قولاً، أو يؤمن بفكرة، أو يقوم بعمل من دون علم حيث يقول:-

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤولاً﴾

يعني أنت الذي اعتقدت بفكرة من دون علم، وقلت قولاً من دون عمل، يا صاحب السمع.. ويا صاحب البصر.. ويا صاحب الفؤاد.. أنت أيُّها الإنسان.. إعلم أنّ كل هذه الأجزاء تكون أنت مسؤولاً عنها، وهي تُسأل يوم القيامة.. فالآية تأمر أن لا تتّبع ما ليس لك به علم، وهذه مسألة فطرية في الإنسان، الإنسان لابد أن يكون تابعاً للعلم، لليقين.. وبعد أن يعلم الشيء، بعد أن يتيقّن من الشيء، عندئذٍ يقوله ويعتقد به ويعمل به.. أما دون اعتقاد ومن دون اطمئنان، كلا ثم كلا.. لأنّه يقول في سورة الإسراء، آية/36:-

﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾

ولا يجوز أن تتبع ظنونك فيما تأمر وتنهى عنه.. تظنّ كذا، ولأجل هذا الظن، فتأمر.. وتظنّ كذا ولأجل هذا الظن، تنهى.. فهذا مما لا يجوز، حيث يقول تعالى في سورة النجم، آية/28:-

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئَاً﴾

ولهذا نرى التربية القرآنية للمؤمنين بشكلٍ عام، وللشباب الأعزاء بشكلٍ خاص، تقول في سورة الحجرات، آية/12:-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرَاً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعَضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾

هذا خطاب للمؤمنين جميعاً، وخصوصاً للشباب الأعزاء الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.. تريد منهم الآية التحفّظ في الأحكام ، عدم التسرع، لابد من التيقّن والعلم قبل أن تأمر بالشيء وتنهى عنه، لا تبنِ على مخلّفاتك الذهنية، لا تبنِ على مسموعاتك، لا تبنِ على بعض قراءاتك، وإنّما لابد من العلم، لابد من الوضوح الكامل...

في سورة الحجرات، آية/12:-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرَاً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعَضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾

اجتنبوا: خطاب للمؤمنين عامة وللأعزاء الشباب خاصة للتأكيد عليهم بأنّ لا يقولوا قولاً إلاّ بعد العلم والوضوح، أي لا يعملوا بالظن لأنّ الله تعالى يقول:- ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرَاً مِنَ الظَّنِّ ﴾ لماذا؟.. لأنّه ﴿إِنَّ بَعَضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ خصوصاً فيما يتعلّق بالظن بالآخرين.. خصوصاً إذا كان هذا الظن مما يوجّه التهمة للآخرين ويطعن بهم ويشوّه سمعة المؤمنين.. خصوصاً إذا كان هذا الظن مما يشوّه ويسيء إلى سمعة العلماء والمجتهدين.. خصوصاً إذا كان هذا الظن مما يفرّق بين المسلمين.. خصوصاً إذا كان هذا مما يبعّد بين المؤمنين، لهذا نرى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول في موضوع الظن:-

﴿ظنّوا بالمؤمنين خيراً﴾

فإنّك تعتقد أنّك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتُفسّق فلاناً وتتكلم على فلان وتُعرّض بفلان وتزرع الفتنة بين المذاهب الإسلامية وبين مقلّدي الفقهاء، والنبي(صلى الله عليه وآله) يقول:-

﴿ظنّوا بالمؤمنين خيراً﴾

والإمام علي(عليه السلام) يقول:-

﴿ضع أمر أخيك على أحسنه﴾

أليس المسلم أخو المسلم؟.. أليس المؤمنون إخوة؟.. ف﴿ضع أمر أخيك على أحسنه﴾ يعني: لا تصدّق عنه شيئاً حتى يثبت عندك بعلم قاطع ودليل واضح وإذا ثبت، فاذهب إليه وقل له.. ولا تحاول أن تقول ذلك بلسانك إلى الآخرين، لأنّك بذلك تكون ممن يريد أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين!.. ولهذا نرى أنّ الله تعالى يؤكّد على ضرورة التحفظ فيما تسمع قبل أن تقول، فيقول في سورة الحجرات، آية/6:-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾

فمن الممكن أن تكون قد سمعت شيئاً من أحد، عن فلان أو فلان، لا تُسرع بقولك، وإنّما تريّث، فلربما الناقل لك فاسق!. فلربما الناقل لك كاذب!. وإذا تبيّن فسقه أو كذبه أو أية غاية أخرى في نفسه.. ستكون أنت النادم!..

الوصية السادسة
الصبر تربية وعمل

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾

من أهم مفردات التربية الإلهية إلى الشباب موضوع الصبر، فقد قلنا مراراً ونقول أنَّ الشباب بحسب عمره يمتلئ فيه كثير من الإنفعالات وكثير من الإندفاعات والتسرع، ومن الرغبة في الوصول بأسرع وقت لعلم أو لكسب أو لأي رغبة من الرغبات، فهذه حقيقة من حقائق الواقع لنفس الشباب، ولهذا فإنَّ الآية تريد أن تقول له لا يمكن أن تصل إلى ما تريد إلاّ بالصبر!..

لأنَّ الإنسان ككل والشباب بشكل خاص لابد أن يكون له موقفاً معيناً واضحاً من نفسه وموقفاً مع الآخرين، وبما أنَّ الإنسان (وكذلك أقول: والشباب بشكل خاص) له هوى وشهوة من جانب، وعقل وإرادة من جانب آخر، فدائماً يتصارع هذا الجانب مع ذاك، إنَّ الإنسان أما أن يكون لنفسه فحسب وأما أن يكون لنفسه وللآخرين، فهو لابد أن يتعايش مع الآخرين، ولابد أن يكون عنصراً فاعلاً معطاءاً للآخرين إذا أراد أن يقوم بواجبه ويشعر بمسؤوليته تجاه الآخرين وما أمَرَ به الشارع المقدس وكما جاء في الحديث الشريف:-

﴿كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيّته﴾

وفي حديث آخر:-

﴿من أصبح وأمسى ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم﴾

فهو لابد أن يعيش مع الآخرين وللآخرين، ولابد أن يُغذّي نفسه وروحه وعقله ويتدّرع بالصبر حتى يتمكن مع الصبر أن يقوم بهذا الواجب الإلهي وأن يكون عبداً لله وخليفة لله ﷻ ويُمثّل الخلافة في الأرض، وأن تكون علاقته مع نفسه على أُسس ربّانية سليمة، وأن تكون علاقته مع الآخرين علاقة معطاءة، علاقة كلها خير ورأفة ورحمة!..

ولهذا نرى من أهم وصايا القرآن الكريم للأعزاء الشباب هو مسألة الصبر، وللصبر عدّة معاني وحسب الآية المباركة، فهناك:-

الصبر الفكري، والصبر العقائدي، والصبر الإيماني، فبعد أن أَمَرتْ الآية المباركة الشباب الأعزاء بالإيمان بالله وتوحيده وعدم الشرك، كأنَّ الآية تريد أن تقول لهم:-

بالتأكيد هناك من يحاول أن يُبعدك عن اللهﷻ وأن يُعكّر صفو العلاقة ما بينك وبين الله، وأن يُبعدك عن عبوديتك له ويُبعدك عن إيمانك بوجود الله ووحدانيته..

فهناك إلحاد وهناك كُفْر وإشراك، فاصبر يا بُنَي على من يريد أن يُبعدك عن إيمانك بالله وعبوديتك لله، وهذا هو الصبر.. صبر الإيمان وصبر العلاقة مع الله وصبر التوحيد.. فكُن ثابتاً وكُن مع الله، واصبر ولا تتأثر بما يقوله أعداء الله وغير المؤمنين بالله ﷻ ولهذا نرى اللهﷻ يقول في سورة المدثر، آية/7:-

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾

إيمانك بالله يحتاج إلى صبر، لأنَّ هناك من يريد أن يُضلّك عن الله ويُبعدك عن الله، فلابد أن تصبر..

وهناك الصبر الخارجي: فمن أوضح الأمور التي تُحيط بالإنسان وتحتاج إلى صبر، هي مسألة الوالدين والصبر عليهما، لأنَّ الله ﷻ يعرف أنَّ هذا ليس بالسهل ويحتاج إلى

الصبر، لأنَّ أذواق الوالدين تختلف عن أذواق الأبناء، ولأنَّ فكرهم يختلف عن فِكْر الأبناء، ولأنَّ أسلوب المعيشة يختلف، ولهذا يحتاج من الأبناء الصبر مع الوالدين حتى يكونوا بَارّين بهما ولهذا أكّد الله تعالى بقوله في سورة لقمان، آية/**14**:-

﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيهِ﴾

فالصبر مسألة مهمة على كل الأمور الخارجية التي تُحيط بالإنسان سواء كان مع الوالدين أو مع الأولاد أو في عمله أو في بيعه وشرائه..

وهناك صبر على الإيمان بالأمور الغيبية التي هي فرع من الإيمان بالله ﷻ وهي متلازمة مع الإيمان بالله، فعندما نؤمن بالله إيماناً كاملاً واضحاً لابد أن نؤمن بالغيب وبالآخرة، وهذا هو صبْرٌ على الجانب الغيبي، فالآيات الواعظة تقول كما في سورة لقمان، آية/**15**:-

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرجِعُكُمْ فَأُنَبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعمَلُونَ﴾

هذا الإيمان بالغيب يحتاج إلى صبر إيماني..

وهناك الصبر العبادي والذي يعني أن تكون العبادة جامعة للشروط المطلوبة بأجزائها وشروطها وواجباتها، لأنّه المطلوب إقامة وليس أداء، وهذا لا يكون إلاّ أن تصبر حتى تُقيمها كما يقول تعالى في سورة لقمان، آية/**17**:-

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ﴾

ومرة المقصود من الصبر، الوقت الذي تأخذه من الإنسان، فلا تستعجل واصبر، فإنّك في صلاتك تتكلم مع الله، فهذا غاية الشرف لك ومنتهى الفخر إليك..

أو المقصود من الصبر هو من حيث الإلتزام بالعبادة، فعندما تسمع المؤذن يؤذن، إنتبه والتفت وقُمْ إلى الصلاة، ولو أنَّ هذا القيام إلى الصلاة يؤثر على بعض أعمالك أو قراءتك أو دراستك، ولكن اصبر على الصلاة وأدّها، هذا نوع من الصبر على الطاعة

والصبر على العبادة.

وهناك الصبر على أداء الواجب والصبر على المسؤولية، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الواجبات وهو مسؤولية كبيرة على كل مسلم، إلاّ أنَّ هذا الواجب وهذه المسؤولية تحتاج إلى الكثير والكثير من الصبر ومن الأناة والتحمّل.. ولهذا نرى قدوة المسلمين وسيّد الأولين والآخرين، خاتم الأنبياء والمرسلين، حبيب ورسول ربِّ العالمين مُحمّد بن عبد الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول لأداء الواجب ولِتحمّل هذه المسؤولية:-

﴿ما أُوذي نبيٌّ مثل ما أُوذيت﴾

ماذا كان يفعل؟..كان يدعوهم إلى الله وإلى الإيمان بالله وإلى توحيد وعبادة الله، إلى العبادة الفكرية والسلوكية لله ﷻ، كان يدعو الأمّة لخلافة الله بأن يكونوا خلفاء لله ﷻ كما أراد.. فماذا كانت النتيجة؟..كان يُضرب بالحجارة ويُدمى وكان يعود إلى بيته ومن رأسه إلى قدميه تسيل الدماء وعَلِيٌّ عليه السلام يمنع عنه الحجارة وخديجة(عليها السلام) تُضمّده ولذا قال:-

﴿ما أُوذي نبيٌّ مثل ما أُوذيت﴾

إلاّ أنّه رحمة للعالمين، وكان يقول:-

﴿اللهمَّ اهدِ قومي إنَّهم لا يعلمون﴾

أليس هذا صبراً؟.. إنّه منتهى الصبر ولهذا نرى الله ﷻ يقول في سورة النحل، آية/127:-

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاّ بِاللهِ﴾

لا يمكن أن يصبر على هذه الأمور هو وأهل بيته وأصحابه ومن يتبعهم إلاّ بعلاقتهم مع الله، إلاّ لثقتهم وحبّهم لله، إلاّ لانصياعهم الكامل لله ﷻ، عرفوا العبودية فعاشوها فكراً

وسلوكاً..

هذا هو حال النبيّ الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم) وهذا صبرُه، وهو ليس بصبرِهِ فحسب، وإنّما هو صبر كل الأنبياء وكل أصحاب الرسالات السماوية الإلهية وكل المُصلحين وكل من يريد الخير لأهله ولإخوانه وبلده وأمّته، ولهذا نرى أنَّ الله ﷻ يقول مُخاطباً النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في سورة الأحقاف، آية/35:-

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾

فهو الذي صَبَرَ أكثر من كل الأنبياء لأنّه أشرَفهم وخاتمهم، ولكن كل الأنبياء صبروا وكل أصحاب الرسالات السماوية صبروا لأنّهم جاءوا لتغيير واقع، ولأنّهم جاءوا لربط الإنسان مع الله على أُسس إلهية ربّانية.. وهذه الأُسس تحتاج إلى الصبر الكثير، فعندما تقول الآية الكريمة الواعظة إلى الشباب في سورة لقمان، آية/17:-

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾

فأنت بذلك تصبر كما صَبَرَ النبيّ الكريم مُحمّد(صلى الله عليه وآله وسلم) وتصبر كما صَبَرَ أُولوا العزم وهم أصحاب الكتب السماوية الخمسة وهم: نوح عليه السلام وإبراهيم عليه السلام وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام ومُحمّد(صلى الله عليه وآله وسلم) فكما أنَّ هؤلاء أصحاب الكتب السماوية والرسالات الإلهية صبروا، فاصبر ونتمثل بقوله تعالى في سورة الأحزاب، آية/21:-

﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾

ونرى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) هو أكثر الناس صبراً، فلابد أن تصبر.. والأمّة التي تؤمن بالله تعالى يجب أن تكون أُمّة صابرة ولابد للفرد الذي له علاقة مع الله تعالى لابد أن يكون فرداً مؤمناً صابراً وخصوصاً الشاب، فهو أحوج من غيره إلى الصبر بكل حياته وإيمانه، ولِفِكْرِه ولِعقيدته، ولِدنياه ولآخرته..

وأما الصبر الفكري: فهو ما يتلقاه الإنسان المؤمن من أفكار لأعداء الله ﷻ ولأعداء قرآنه ولأعداء نبيّه وأئمته وصحابة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) الأتقياء الصالحين ولأعداء السلف الصالح من العلماء والفقهاء والمجتهدين..

فأعداء الله كما يُحاولون الطعن في مسألة الإيمان بالله والتشكيك في ذلك، كذلك هم أو غيرهم يُحاولون الطعن بالأفكار الإلهية.. ولهذا نرى أنَّ أعداء الإسلام يُحاولون وبكل الصور تمييع المسلمين بأفكار دخيلة على دينهم وعلى تأريخهم وعلى عقيدتهم وإسلامهم وسُنّتهم وعلى سيرة سلفهم الصالح وذلك لتمييع المسلمين.. وذلك لانتزاع أهم ما يملكون، وهو الإيمان بالله والسير على منهجه وهو القرآن الكريم والسُنّة المُحمّدية الشريفة وسيرة الأئمة الصالحين عليهم السلام والصحابة الأتقياء (رضي الله عنهم).

ولهذا نرى أعداء الإسلام يُحاولون زَرْع الأفكار البعيدة عن الإسلام وزَرْع الفتن بين المسلمين وتفريقهم، كل ذلك لنَزعهم أهم ما يملكون، ومن ثم احتوائهم حتى يكونوا آلات لأعداء الله من الكفرَة والصهاينة والمستعمرين.. ومن ذلك ما يُسمّى بالموضة أو العادات الأجنبية التي يُحاول أعداء الله والإسلام فَرْضَها على شبابنا المؤمن وعلى شبابنا الأعزاء.. هذه الموضات هي تماماً أمور ظاهرية إلاّ أنَّ الإسلام دائماً يريد منكم –أيّها الشباب– أن يكون ظاهركم كباطنكم وباطنكم كظاهركم.. أن يكون هناك اتفاق بين الظاهر والباطن وبين الداخل والخارج، وأن لا يكون هناك إثنينية لك في دينك وإسلامك وشريعة ربّك وسُنّة نبيّك وسيرة أئمتك والصحابة الصالحين.. أفضل نَهْج وأشرف منهاج وأقْوَم أخلاق، فلماذا نأخذ من هؤلاء هذه الأفكار وهذه الموضات وهذه التقاليد؟..

لنا تأريخ ناصع لا يملكه أحد من الأمم ولا من الشعوب.. ولنا قرآن، كتاب الله العظيم ودستور الحياة ومنهج المجتمع، لنا سنَّة نبيّنا محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) الذي هو كما يقول الله تعالى في سورة النجم، آية/3–5:–

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى﴾

لنا نماذج رائعة من الأئمة الأطهار في سلوكهم وأخلاقهم، ولنا صورٌ مشعّةٌ من الصحابة العظام، ولنا تاريخ ولنا حاضر!.. فلماذا نتأثّر بأفكار أعداء الله؟!.. ولماذا نتأثّر بأعداء الإسلام والقرآن؟!.. ولماذا نقلِّد مرةً هؤلاء ومرّةً أولئك بزيِّهم أو تصرفاتهم أو حركاتهم؟!..

القرآن يريد منكم –أيُّها الشباب– بقوله في سورة لقمان، آية/17:–

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾

أن يكون هناك بالإضافة إلى الصبر الإيماني صَبْرٌ فكري، وأن يكون لك استقلالية بفكرك، وأن يكون فكرك فِكْر الإسلام وفِكْر مُحمّد(صلى الله عليه وآله وسلم) وفِكْر سلفك الصالح من الأئمة عليهم السلام أجمعين والصحابة (رض).. وأن لا تتأثر بأفكار غيرك واصْبِرْ على تلك الأفكار ولا تتأثر بها ولا تصغر أمامها ولا تتضاءل معها وكُن مُحافظاً على وجودك وإيمانك وفِكْرك.. هذا ما أردنا أن نقوله في الصبر الفكري...

وأما الصبر العقائدي، فنحن لا نُفرّقُ في مفهوم العقيدة ما بين الفكر والعمل ولهذا معنى الصبر العقائدي: أنَّ أعداء الله تعالى والقرآن والإسلام يُحاولون أن يُشكِّكوك بكل عمل عبادي تقوم به، وبكل جزئيات حياتك العبادية...

فمن المُحتمل أن يُشككوك في صلاتك، ولماذا هذه الصلاة؟.. وأن يُشككوك في حَجِّك، وأن يُشككوك في صومك، وأن يشككوك في زكاتك، كأن يقول البعض سواء كان من أعداء الإسلام أو من المسلمين الجهلَة، فيقول لك:–

لماذا الصلاة؟.. المهم أن تكون إنسان جيد لا تضرُّ أحداً!.. وكأنّه يريد أن يُعطيك منهجاً وفكراً وعقيدة، هل أنّ الجيد هو الذي يُعطي لنفسه صفاتهِ وسماتِهِ وملامحهُ وخصائصهُ؟.. أم أنَّ الذي خَلَقَه هو الذي يُعطيه معنى الجيد والرديء ومعنى الخطأ والصح

ومعنى الخير والشر؟...

أو يقول لك سواء كان مسلم جاهل أو غير مسلم:-

ما معنى رَمْيِّك عندما تذهب إلى الحجِّ وترمي الأسطوانات الصخرية التي ترمز إلى الشيطان؟.. ويحاول أن يُشكّك في عقيدتك وقد نسى أنَّ هذا الأمر إلهي، وأنّك عندما ترمي هذه الإسطوانة، فكأنّك ترمي الشيطان الذي في داخلك وتحررتَ من عبوديته وأصبحتَ عبداً لله وبذلك خرجتَ من العبودية إلى الحرية...

وهكذا يقول لك عن الزكاة والخُمس، أنّك عندما تُعطي هذه الزكاة سوف تفتقر، وقد نسيَ الأمر الإلهي الموجّه إليك في وجوبها وأنّه زكاةٌ لمَالِكَ ونَمَاءٌ وحفظٌ لِمَالِكَ...

وهكذا كل التشريعات الإلهية، فنرى سواء كان من أعداء الإسلام الذين هم ليسوا بمسلمين أو من المسلمين الجهلاء يُحاولون أن يُشككوا بكل هذه المفردات الربّانية التي جَعَلَها الله ﷻ عقيدة للإنسان المسلم وعبادة له.. فيريد منكم القرآن -أيُّها الشباب- الصبر على هذه التشكيكات العقائدية أو الفكرية أو الإيمانية..

أما كيفية الصبر الذي يُعبّر عنه القرآن بموعظته إلى الشباب بقوله تعالى في سورة لقمان، آية/17:-

﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾

فالقرآن يريد أن يثيرَ عزيمتك وقوّتك وإرادتك وصلابتك، ويريد أن يُرجعك إلى الإيمان الذي يُعطيك كل هذه المعاني، ولهذا نرى أنَّ الله تعالى في تربيته للأمّة على الصبر، يقول لهم في سورة آل عمران، آية/200:-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ﴾

فبعد أن تأكّد الأساس وهو الإيمان باللهِ تعالى يحصل التوجُّه من الأمة إلى الله، فهي مُتلقية لأوامر الله.. فهي خاضعة وخاشعة لله.. فهي ذليلة ومُنصاعة لله تعالى.. فيأتي لها

الخطاب الإلهي:-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ﴾

الصبر الإيماني تأكيد لمفهوم الإيمان في نفوسكم، واصبروا على كل ما يقال عن دينكم من أفكار.. وصابروا لكي تكونوا واعين لما يقوله أعداء الله في عقيدتكم.. ولابد أن تُلفتوا أنظار غيركم عندما يحاول أعداء الله وأعداء القرآن الطعن في عقيدتكم وعبادتكم وفي منهج ربِّكم وسُنَّة نبيِّكم...

ومن أهم أنواع الصبر هو: الجهاد.. أليس الجهاد من مقومات الإسلام؟.. أليس الجهاد من أركان الإسلام -(جهاد الأعداء وجهاد النفس)-؟.. فعندما عاد المسلمون من إحدى الغزوات قالوا:-يا رسول الله، لقد انتهينا من الجهاد.. فقال:-

﴿نَعم، إنتهينا من الجهاد الأصغر وبقي علينا الجهاد الأكبر ﴾

فقالوا:-يا رسول الله، وما هو؟.. فقال:-

﴿جهاد النفس﴾

فإذا كان في جهاد الأعداء، فيجب أن تكونوا صفاً واحداً.. وإذا كان في جهاد النفس، فيجب أن تتلاقى النفوس على عبادة الله وعلى الإيمان به وعلى طاعته وحبه وعلى الخشية من الله وعلى الإنصياع الكامل له.. الخطاب موجّه للمؤمنين، يريد أن يقول ﷺ للأمّة ومنهم الشباب الأعزاء، إنّكم معرّضون للخطأ دائماً وللانحراف والمعصية، ولهذا لابد أن تذكروا الله دائماً وتتّقوه...

وعندما يؤكّد القرآن الكريم على ضرورة الصبر بشكل عام للأمة وللشباب بشكل خاص، نلتفت إلى حقيقة الدنيا بما هي دنيا، ففيها الكثير من المتاعب والمصاعب والإبتلاءات وأنواع الإمتحان.. ونلتفت إلى الوضع الخاص للشباب وقلّة تحمّلهم لأنّهم جديدو عهدٍ بالحياة وما فيها من امتحانات ومن مصاعب وعقبات، ولهذا يؤكّد على

موضوع الصبر بكل أنواعه ويؤكّد على أن ذلك من عزم الأمور، كأنّه يريد أن يُثير العزم في الشباب والقوة والثبات والإرادة فيهم.. ولذلك نرى تأكيداً لهذا الموضوع وهو موضوع العزم والقوة وضرورة وجوده عند الشباب بشكل خاص وعند الأمة بشكل عام، نرى أن الله ﷻ يخاطب الأمة في سورة آل عمران، آية/186:-

﴿لَتبلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتسمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً﴾

فلابد أن يكون هناك امتحان واختبار في الحياة الدنيا، فمرة يكون في الحال ومرة يكون في النفس، ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾ فهو يُناقشك بما في نفسك من إيمان بالله وفِكْر إلهي وفِكْر قرآني، ولهذا تقول الآية:- ﴿لَتُبلَونَّ﴾ يعني -يا أيُّها الأمّة- ستُبلون في أموالكم وأنفسكم، يُحاول أن يُضلّك عن أوامر الله في مالك وفي نفسك، ونتيجة هذه المحاولات لإضلالك عن أوامر الله ولكي يُبعدك عن الله ﴿وَلَتسمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً ﴾ (تسمع) يعني: هو يتكلم وأنت تسمع، هو يُشكّك وأنت تسمع، يشكّك بربِّك ونبيِّك وقرآنك، يُشكّك بأئمتك وبالصحابة الطاهرين وبالسلف الصالح وبقيَمكَ وتاريخك.. فيحاول أن يؤذيك بذلك ويحاول أن يهدم بناءك الداخلي.. ولكن أنت مؤمن، والمؤمن لابد أن يبقى متمسكاً بعلاقته مع ربِّه ولهذا تقول تتمة الآية/186 من سورة آل عمران:-

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾

لابد أن تصبروا على أذاهم وعلى ما تسمعون منهم وما يُحاولونه معكم من تشكيككم وإبعادكم عن الله وعن دينكم وقرآنكم ونبيِّكم وأئمتكم وصحابتكم..

لابد أن تصبروا وتتقوا، وهنا ﴿تَتقُوا﴾، فالقرآن الكريم يريد أن يُلفت أنظارنا أنّه لابد أن يكون كلامكم ليس ككلامهم، فهم يتكلمون بأخلاقهم ويتكلمون بما لديهم من

فِكْرٍ ومن عقيدةٍ وهم بعيدون عن الله.. ولكن أنت عندما تتكلم وعندما تردُّ عليهم، لابد أن تردَّ عليهم باللين وبالأخلاق وبالكلمة الطيبة وبالتي هي أحسن، فلابد أن تتقي بجوابك، وأن تصبر وتتقي، فذلك تمام الرجولة فيك وتمام العزم فيك والإرادة لديك..

والإفتتان سُنّة إلهية لأجل اختبار الأمّة، يقول تعالى في سورة العنكبوت، آية/ 1-3:-

﴿ألم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾

فهناك دائماً أعداء لله ﷻ من صهاينة ومستعمرين ومن كَفَرَة يُحاولون أن يُضلّوا المسلمين ويفتنوهم ويفرقوهم، تلك هي سُنّة وهناك خط إلهي، وهناك عباد للرحمن وهناك عباد للشيطان، وعباد الشيطان دائماً يحاولون أن يضلّوا عباد الرحمن ولهذا تقول الآية:-

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾

من كان صادقاً من المؤمنين، ومن كانت علاقته قوية مع الله ﷻ، ومن الذي صَبَرَ صبراً إيمانياً وصبراً فكرياً وصبراً عقائدياً، ومن الذي كان ما يقوله في لسانه ، فعلاً في قلبه، وما في قلبه على لسانه وعمله.. وذلك جزاؤه الجنة، يقول تعالى في سورة البقرة، آية/214:-

﴿أَمْ حَسبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمْ البأسَاءُ والضَّرَّاءُ﴾

البأساء والضرّاء كلها كانت من أجل صبر إيماني أو عقائدي أو فكري، وأخيراً نقول قول الله تعالى في سورة البقرة، آية/153-157:-

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بالصَّبرِ وَالصَّلاةِ إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ وَلَنبلُونَّكُمْ بِشَيءٍ

مِنَ الخَوفِ وَالجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَموَالِ وَالأنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ﴾

هذا التأكيد الثاني إلى الذين آمنوا أوسع من التأكيد الأول:-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾

إستعنْ على حياتك بالصبر.. إستعنْ على أدائك لواجباتك الإلهية بالصبر.. إستعن على ما نهاك الله عنه بالصبر.. إستعنْ بالصلاة لأنّها معراج كل مؤمن.. فإن استعنتَ بالصبر والصلاة، يكن الله معك، فإنَّ الله مع الصابرين، ومن كان مع الله، كان الله معه.. وإن صبرتَ وبقيتَ مع الله، فلك البُشرى، ولك الخير، ولك السلامة ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ من كل أنواع المصائب ﴿قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ﴾ تجسيد عملي لفكرة الصبر قول:-

﴿قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ﴾

تجسيد عملي لمفهوم العلاقة مع الله.. فأنت منه وإليه وما يكون بك، فهو بعينه ولهذا تقول:-

﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ﴾

كما قال تعالى في سورة الفرقان، آية/3:-

﴿وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلا نَفْعَاً ولا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً﴾

يعني الأمر كله بِيَدِ الله كما قال تعالى:-

﴿أُولَئِكَ عَلَيهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ المهْتَدُونَ﴾

كيف أنَّ الله ﷻ يُصلّي على نبيِّه الكريم عندما يقول في سورة الأحزاب، آية/56:-

﴿إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَته يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلّوا عَلَيهِ وَسَلِّمُوا

تَسْلِيماً﴾

فكما أنَّ الله يُصلّي على نبيِّه كذلك يُصلّي على المؤمن الصابر وأكثر من الصلاة، فهو يكون برحمة الله دائماً، ويجعلك الله ﷻ من المُهتدين القريبين إليه أولئك يُجزونَ الغرفةَ بما صبروا...

الوصية السابعة

التواضع إنسانية وعبودية

﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للنَّاسِ﴾

وفيها توجيه للشباب من قِبَل الله ﷻ تربية لهم والتفاتاً إلى حقيقة يعيشها الشباب، فالعنفوان دائماً يُسبب الزهو.. والصحة دائماً تُسبب الكبرياء.. ويعتقد الإنسان أنّه قادر على كل شيء، ولا شيء يقف أمامه ولهذا تظهر سمات سلبية، من هذه السمات والتي يريد القرآن الكريم أن يُعالجها للأمّة وللشباب بشكلٍ خاص، فلقمان يقول في موعظته لولده كما جاء في سورة لقمان، آية/18:-

﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للنَّاسِ﴾

تصعير الخد:-هو التكبّر -وكما قلت- هو نتيجة ما يرى في نفسه من عنفوان وشباب، ومن قوة وجسم، ومن ألطاف إلهية كثيرة.. ولكنها في بعض الأوقات تُستغل استغلالاً سلبياً، إستغلالاً غير ناضج ولا مدروس ولهذا تحصل حالة التكبّر.. هذه الحالة (حالة التكبر) قرّبها القرآن لنا بتصعير الخد، فيقول في سورة لقمان، آية/18:-

﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للنَّاسِ﴾

أي لا تمل بوجهك عن الناس ولا تُعرض عنهم تكبّراً واستعلاءاً، بل أقبلْ عليهم،

وقد وَرَدَ عن الإمام الصادق(عليه السلام) قال:-

﴿أي لا تمل بوجهك عن الناس ولا تُعرض عن من يُكلمك استخفافاً به﴾

بمعنى أن لا تستخفَّ بالآخرين ولا تُغيّر إتجاه وجهك عن من يُكلمك تَكَبّراً منك عليه واستخفافاً منك به..

ويقول الإمام الصادق(عليه السلام):-

﴿ما من رجلٍ تَكبّرَ أو تَجبّر إلاّ لِذلّةٍ وجدها في نفسه﴾

وهذا في علم الإجتماع والنفس له وجود كبير، فالأمور الظاهرية التي تخرج من الإنسان الغير سليمة والغير طبيعية هي نتيجة أمراض نفسية في داخله، نتيجة عقدة ومرض في داخله، نتيجة ضعف في داخله.. وكل أنواع أمراض التعقيد وكل أنواع الضعف هي نتيجة:-

عدم الإرتباط مع الله(عز وجل).. عدم تغذية نفسه التغذية السليمة.. عدم الإنابة إلى الله..

ومن البديع أنَّ الآية تقول:-

﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾

لماذا لم تقل:-﴿ تُصَعِّرْ وجهك أو عينك أو أنفك﴾؟..

من الممكن أن يكون المقصود تذكير للإنسان وخصوصاً في أيام الشباب وعنفوان الشباب، إنَّك -أيُّها الإنسان- كادح إلى ربِّك كدحاً فملاقيه، وعندما تُلاقيه، خدّك الأيمن على التراب.. فعندما ذكرت الآية (خدّ)، فسيكون هذا الخدّ الذي كله تَرَف، يكون على التراب وأنت مُلاقي ربّك، ولا تعلم عدد السنين التي يبقى فيها هذا الخدّ على التراب، من موتك إلى يوم نَشْرك..

فعلام هذا التكبّر؟.. وعلام هذا التصعّر؟.. وعلام هذا التجبّر؟.. وعلى من تتجبّر؟.. وعلى من تتكبّر؟.. أعلى الله؟.. أم على خَلْقهِ؟.. ولهذا يكون المتكبّرون أبعد الناس عن الله!.. لأنّهم نسوا الله ونسوا أنفسهم، لأنّه من عرف نفسه فقد عرف ربّه، ولو كان قد عرف نفسه لما تَكبّر.. فهو لو عرف نفسه لعَلِمَ أنَّ أوّله نطفة قذرة وآخره جيفة نتنة وما بينهما حامل عَذِرَة، فعلامَ التكبّر؟!.. لَعَلِمَ أنّه كما يقول تعالى في سورة طه، آية/55:-

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾

فعلامَ التكبّر؟!.. ولو كان قد عَلِمَ معنى العبودية للهﷻ لما تكبّرَ لحظة، وهل يمكن للعبد أن يكون مُتكبّراً؟!.. التكبّر لا يليق إلاّ بربِّ العزّة، وما دونه فهم عبيد.. وهل يمكن أن يجتمع التكبر مع العبودية؟..

ولهذا يقول اللهﷻ في سورة النحل، آية/23:–

﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْتَكْبِرِينَ﴾

بعكس الذين أنابوا واستغفروا وتابوا، يُحبّهم ويُحبّونه، أما هنا لا يُحبُّ المُتكبرين..

لقطة عن التكبّر:–يروي الإمام الصادق(عليه السلام) قائلاً:–

﴿جاء رجل موسر(ذو مال) –ولكن الدنيا كانت كلّ هَمِّهِ– إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وكانت ثيابه جديدة مُرتّبة، فجلس إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ثم جاء رجل مُعسر وثيابه تتناسب مع إعساره وفَقْرِه، فجلس إلى جَنْبِ المُوسر، فقبضَ المُوسر ثيابه من تحت فخذيه وأخذَ يتلملم ولا يريد أن يلمسها المُعسر.. قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):–

–أَخِفْتَ أن يَمَسَّكَ من فَقْرِهِ شيء؟..

أجابَ المُوسر:–لا يا رسول الله..

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):– فَخَفْتَ أن يوَسّخَ ثيابك؟..

أجابَ المُوسر:–لا يا رسول الله..

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):– فما حَمَلَكَ على ما صنعتْ؟..

فقال:– يا رسول الله، إنَّ لي قريناً يُزَيّنُ لي كل قبيح ويُقَبّحُ لي كل جميل، وقد جعلتُ له نصف مالي!..

فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) للمُعسر:– أتقبل أن يكون نصف ماله لك؟..

قال:– لا!.. فقال له الرجل:– لِمَ؟..

قال المُعسر:– أخافُ أن يدخلني ما دخلك﴾

هذه صورة نبوية رائعة للأمّة ككل وللشباب بشكلٍ خاص.. علامَ التكبّر؟.. وعلى من تتكبّر؟.. أليس هو أخ لك في الإنسانية، ومن ثم في الدين؟.. أليس الجميع من بني آدم؟.. وإن كنتم مسلمين، فأنتم إخوة كما يقول تعالى في سورة الحجرات، آية/10:–

﴿إِنَّما المُؤمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾

فعلامَ التكبّر؟.. ولهذا يكون عقابه شديداً، يقول تعالى في سورة الزمر، آية/60:–

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً للمُتَكَبِرِينَ﴾

هذا عقاب المُتكبّرين، هذا جزاؤهم، هذا حُكُم الله عليهم (نار جهنم)..

ورُوِيَ عن الإمام الصادق(عليه السلام) قال:–

﴿وقعَ بين سلمان المُحمّدي وبين رجل كلام وخصومة، فقال له الرجل:– من أنت يا سلمان؟.. فأجابه سلمان:–أمّا أَوّلي، فنطفة قذرة.. وأمّا آخري وآخرك، فجيفة نتنة﴾

فإذا كان يوم القيامة ووضِعت الموازين، فمن ثَقُلتْ موازينه، فهو الكريم.. ومن خَفّتْ موازينه، فهو اللئيم.. فعلامَ التكبّر؟!..

وللجانب النفسي –كما قلنا– فإنَّ التكبّر حالة نفسية في الإنسان، نتيجة نَقْصٍ داخلي فيه ولهذا يصف الإمام الصادق (عليه السلام) التكبّر بالجنون، وهو ينقل رواية عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) حيث قال:–

﴿مرَّ رسول الله على جماعة، فقال:– على ما اجتمعتم؟.. فقالوا:–يا رسول الله، هذا مجنون يصرَع، فاجتمعنا عليه..

فقال (صلى الله عليه وآله):–ليس هذا بمجنون ولكنَّه المبتلى!.. ثم قال (صلى الله عليه وآله):–ألا أُخبركم بالمجنون حقَّ الجنون؟..

قالوا:–بلى يا رسول الله..

قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):–هو المتبختر في مشيه، الناظر في عِطفيهِ، المحرِّك جَنبيهِ بمِنكبيهِ، يتمنّى على الله جنّتهُ وهو يعصيه، الذي لا يؤمن من شره ولا يُرجى خيرهُ، فهذا المجنون وذاك المبتلى﴾

أنظروا –أيُّها الأحبة– كيف أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أعطانا درساً عملياً

واضحاً لمفهوم التكبُّر ولمعنى التكبُّر..هذا هو التكبُّر، وهؤلاء هم المتكبِّرون، مُبغَضُون في الحياة الدنيا ومُعَذّبون في الآخرة، إذن فلماذا التكبُّر؟!..

إذن، لابد من عدم تصعير الخدّ ولابد من التواضع، وتلك هي سمة المؤمنين وتلك صفاتهم، وتلك هي صفات من أناب، ولهذا يصف الله ﷻ المجموعة المؤمنة ويصف تعاملهم وأخلاقهم، وكيف أنّ بعضهم أولياء بعض، وكيف أنّ علاقتهم مع الله ﷻ، علاقة عبودية، علاقة حب وطاعة، لا يوجد تكبُّر، لا يوجد تصعير خد، يقول تعالى في سورة المائدة، آية/54:-

﴿فسوفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوِمٍ يُحِبُّهُم وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤمِنِينَ أَعَزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَومَةَ لائِمٍ﴾

أين هذه الصورة من التكبُّر؟!.. هذه الصورة كلها رحمة وعطاء، كلها ارتباط مع اللهﷻ!.. وأنتم أيُّها الشباب في عنفوان شبابكم لابد أن يكون ارتباطكم مع الله ﷻ أقوى، فهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤمِنِينَ﴾ بمعنى التواضع، وكذلك نرى في صفة علاقة الأبناء بالوالدين، كما في سورة الإسراء، آية/24:-

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرَاً ﴾

هذا تواضع، أين هذا التعليم الإلهي من تصعير الخد والتكبّر؟!.. والتواضع هو وسط بين التكبّر وبين الذل، واللهﷻ عندما يصف المؤمنين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى المُؤمِنِينَ﴾ هذا إذا لم يستلزم ضعة النفس وذلّة النفس وخشوعها لغير اللهﷻ.. أما إذا تذلّلتَ لأخيك المؤمن المسلم فهذا التذلّل لله!.. لأنّك تكون بذلك ضمن الصياغة الربّانية للعبد المتّقي المتوجّه إلى اللهﷻ، هذا هو المطلوب من الإنسان المؤمن.. وعندما يعظ لقمان ابنه -(وهي موعظة ربَّانية لكل أبنائنا وشبابنا وأحبّتنا)- يقول:-

﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾

يعني لا تتكبّر، تواضعْ:-

(تواضعْ تكنْ كالنجمِ لاحَ لناظرٍ)

ولهذا نرى أنّ الهديَ النبويَ إلى الأمّة عامة وإلى الشباب خاصة، يقول (صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿ما تواضع أحد إلاّ رفعه الله﴾

إذن، فالتواضع ليس تربية لنفسك فحسب، وإنّما هو ضمان إلهي لِرِفعَتِك وعُلُوِّك، ويقول في حديث آخر:-

﴿من تواضع لله رفعه﴾

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة:-

﴿مكارم الأخلاق عشر خصال:-الأولى: الصدق، الثانية: أداء الأمانة، الثالثة: التواضع، الرابعة: الحلم، الخامسة: الصبر، السادسة: الحياء، السابعة: السخاء، الثامنة: الشكر، التاسعة: الشجاعة، العاشرة: الغيرة ﴾

أي أنّ تواضعه للآخرين يكون هداية إلهية وهِبَة ربّانية (للإنسان) وانسجاماً مع مفهوم العبودية الذي يريده لله ﷻ من الأمّة أفرداً وجماعات، ويقول (صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿لا حسب كالتواضع﴾

فعندما يرى الإنسان أنّه ذو حسب ونسب وذو تاريخ وأمجاد، لابد أن تتجسّد هذه الأمجاد وهذا النسَب وما يملك من تَلَد، من آباء وأجداد، وأن تجتمع كل هذه الأمور وتكون أسباباً في تواضعه مع الآخرين!.. لأنّ كل هذه الأمور تؤكّد إنسانيته وعبوديته، ولا إنسانية ولا عبودية إلاّ بالتواضع!.. ويقول (صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿طُوبى لمن تواضع من غير منقصة وأذلَّ نفسه في غير مسكنة وأنفق من مالٍ جمعه من غير معصية﴾

التواضع مطلوب، على أن لا يصل إلى درجة المنقصة، فالمطلوب هو التواضع مع الاعتزاز!.. لأنّه وكما يقول الله تعالى في سورة المنافقون، آية/8:-

﴿وَللهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤمِنِينَ﴾

وكما قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في حديث سابق:-

﴿من تواضع لله رفعه﴾

كذلك يقول في حديث آخر:-

﴿إنَّ الصدقة تزيد صاحبها كثرة، فتصدّقوا يرحمكم الله﴾

فعندما تتصدّق من مالك، الله يُضيف لمالك أضعافاً مضاعفة وإنّ التواضع –(وهو محل الشاهد)– يزيد صاحبه رفعة ﴿وإنّ التواضع يزيد صاحبه رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله، وإنّ العفو يزيد صاحبه عزّة، فاعفُوا يُعزّكم الله﴾

لماذا؟.. لأنّ هناك نسبة وتناسب!.. كلما يكون الإنسان في نفسه متواضعاً صغيراً ويتجسّد ذلك في سلوكه مع الآخرين، يرفعه الله ﷻ، تكون الدرجات له عند الله أعلى وأعلى، وهذا معنى النسبة والتناسب..

وبعد ذلك يقول إمام المتّقين وسيّد الموحدين بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أمير المؤمنين:–

﴿طوبى لمَن شغله عيبه عن عيوب الناس وتواضع من غير منقصة وجالس أهل الفقر والرحمة وخالط أهل الذلّة والمسكنة وأنفق مالاً جمعه في غير معصية﴾

التواضع من غير منقصة، من مصاديقه –(يقول الإمام لنا)– مجالسة الفقراء والرحمة بهم، مخالطة المتواضعين والراحة معهم والإطمئنان في الحديث إليهم فيكون المقياس في مخالطته للآخرين هو: عبادتهم وإيمانهم، صلاحهم وتقواهم، أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين، ولهذا يجعل الإمام التواضع من أعظم العبادات، كما أنّ التكبّر وتصعير الخدّ كان من أكبر المعاصي، وأنّ اللهﷻ في سورة النحل، آية/23:–

﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾

كذلك التواضع من أهم العبادات، يقول الإمام علي(عليه السلام):–

﴿عليك بالتواضع، فإنّه من أعظم العبادات﴾

لأنّ الإنسان بالتواضع يعرف نفسه و﴿من عرف نفسه عرف ربّه ﴾ ولهذا يكون من أعظم العبادات، هذا أولاً..

وثانياً:– بالتواضع يكون ترويض النفس، وترويض النفس من أعظم العبادات...

ثالثاً:– إنصياع كامل للصياغة الربّانية المطلوبة للعبد المؤمن، وهذا الإنصياع من أعظم العبادات، يقول(عليه السلام):–

﴿وبالتواضع تتمُّ النِعم﴾

كيف؟.. فنقول:-

أولاً:- التواضع هو راحة النفس!.. وأي نعمة من دون راحة النفس، لا طعم لها، لا لذّة فيها!.. فالنتيجة تكون: النعمة من دون تواضع لا فائدة منها ولهذا يقول الإمام:-

﴿بالتواضع تتمُّ النِعم﴾

ثانياً:-التواضع هو عبارة عن شكر الله ﷻ، على نعمه كما يقول تعالى في سورة إبراهيم، آية/7:-

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾

فعندما يشعر الإنسان أنَّ هناك نِعم تُحيطه لا تُعدُّ ولا تُحصى وكلها من الله، لابد أن يكون متواضعاً لله ولعباده، والتواضع بكل أنواعه، بكل مصاديقه:-

تواضع العالم بعلمه، تواضع الغنيّ بماله، تواضع الصانع بصُنعه، وهكذا بكل مفردات الحياة، ويتأكد أكثر في بعض المواضع، فالإمام أمير المؤمنين عليه السلام يُنبّه إلى موضوع التواضع حيث يقول:-

﴿ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلباً لما عند الله﴾

فهو غنيّ ذو مال ويتواضع إلى شخص ذي عسرة، ذي فقر، لماذا؟!.. يبتغي وجه الله لأنَّ هؤلاء هم عيال الله.. ويقول الإمام تتمة لقوله الأول:-

﴿وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالاً على الله﴾

المطلوب من الغنيّ أن يتواضع للفقير، والأحسن أن لا يذهب الفقير إلى الغني وإنّما يجعل الغنيّ يأتي إليه، هذا هو التواضع المطلوب..

ويُعطينا الإمام الصادق عليه السلام ملامح أخرى للتواضع، فيقول:-

﴿إنَّ من التواضع أن يرضى بالمجلس دون المجلس﴾

أي أن لا يهتم بمكان معين أن يجلس فيه ﴿ فالمكان بالمكين، وأن يُسلّم على من يلقى، تلك هي علامة الإسلام، وأن يترك المراء[1] وإن كان مُحقّاً﴾.

﴿ومن التواضع أن لا يحبّ أن يُحمد على تقوى﴾

يعني: يُحمد على إيمانه، يُحمد على عبادته، ويُحمد على أعماله الخيّرة لأنّها لوجه

---

[1] المراء: الجدال الزائد.

الله..

وعن الإمام الصادق كذلك قال:-

﴿فيما أوصى الله ﷻ داود ؏:-يا داود: كما أنَّ أقرب الناس من الله المتواضعون، كذلك أبعد الناس من الله المُتكبّرون ﴾

فلنرى أنفسنا -أيُّها الأحبة، أيُّها المؤمنون، أيُّها الشباب بشكل خاص- نريد أن نكون قريبين من الله أم بعيدين؟.. إن أردنا القُرب، فعلينا بالتواضع.. وإن أردنا البُعد، فعلينا بالتكبّر، فانظر نفسك، أين تضعها؟.. يقول الإمام أمير المؤمنين ؏ مُخاطباً أهل العلم، لأنّه من الممكن أن يكون هناك شيء من التكبّر في أهل العلم أو الاغترار بالعلم، يقول:-

﴿أُطلبوا العلم وتزيّنوا معه بالحلم والوقار وتواضعوا لمَن تعلّمونه العلم وتواضعوا لمَن طلبتم منه العلم ولا تكونوا علماء جبارين ﴾

لأنّ العلم لله، فإذا كان العلم والتعلّم والتعليم لله ﷻ، فلابد أن تكون الصياغة الربّانية لداخل الإنسان مُنسجمة مع الله ﷻ، والصياغة الربّانية: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾.. والصياغة الربّانية: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.. والصياغة الربّانية: ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾

ومما يُروى عن عيسى ابن مريم؏ أنّه قال:-

﴿في التواضع تعمر الحكمة لا بالتكبّر، وكذلك في السهل ينبت الزرع لا في الجبل﴾

هكذا لابد أن نكون متواضعين في أنفسنا، مع أهالينا، مع المجتمع ككل حتى نكون عبيداً صالحين لله ﷻ، هذه هي توجيهات للجميع، لكل المؤمنين، ولكن تتخصص للشباب، لأنّهم بعنفوانهم، بزهوهم، لأنّهم بالقمّة بكل غرائزهم وميولهم، ولأنّ محاولات الشيطان عليهم أكثر، فلابد أن يلتفتوا لأنفسهم أكثر..

الوصية الثامنة

الإنسان والتربية النفسية

﴿وَلا تَمشِ فِي الأَرْضِ مَرَحَاً﴾

المرح الذي يكون عبارة عن العجب، المرح الذي يكون نتيجة لنسيان الإنسان لنفسه ولواقعه ولحقيقته ولبدايته ولنهايته!.. لابد للإنسان أن يعرف حقيقته ولابد أن لا ينسى قول الله ﷻ في سورة طه، آية/55:-

﴿مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾

هذه الأرض التي تمشي عليها مرحاً، فلماذا العُجب؟.. ولماذا تعتقد أنّك قادر على ما تريد؟.. ولماذا الزهو أكثر من اللازم؟.. ثم كيف ينسجم هذا المرح وهذا الزهو مع التواضع المطلوب؟.. كيف ينسجم مع ﴿أَذْلَّة عَلَى المُؤمِنينَ﴾ ؟..

بعد ذلك يريد منّا الله ﷻ أن نكون فرحين بطاعته، فرحين بعبادته، أن نكون سُعداء باستقامتنا، بعبادتنا ونزاهتنا، أن نكون مَرِحين بمقدار صدق العبودية ما بيننا وبينه، أن نكون مَرِحين بمقدار التزامنا بالأوامر الإلهية والنواهي الربّانية.. هذا والحقيقة أنَّ الإنسان لابد أن يكون دائماً مُتّهماً لنفسه، أن يكون بين الخوف والرجاء، ولهذا يقول الله ﷻ في سورة النساء، آية/48:-

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكّي مَنْ يَشَاءُ﴾

فهذا المرح نتيجة العُجب وتزكية النفس، نتيجة أنّك تتصور أنّك كامل ومُنقّى ومُزكّى..إذن أين الخوف والرجاء؟!.. إذن أين قول الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) مُخاطباً الأمّة:-

﴿لو أتيتم بعبادة الثقلين فلا تُدلوا على الله شيئاً، ولو أتيتم بذنوب الثقلين فلا تيأسوا من رحمة الله﴾

يقول الشاعر:-

ما أظنُّ أديمَ الأرضِ إلاّ من هذهِ الأجسادِ

ودائماً عندما يحكم الإنسان على نفسه ويُزكّيها، فهو أكبر دليل على جهله وغروره،

وعلى عدم معرفته لنفسه، وعدم علاقته السليمة مع ربّه ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ فلماذا تمشي مَرَحاً وتمشي الخُيَلاء؟!.. ولهذا يقول الإمام محمّد الباقر(عليه السلام):-

﴿ثلاثة هنَّ قاصمات للظهر، أولاً: رجل استكثر عمله، وثانياً: ونسي ذنبه، وثالثاً: وأعجب برأيه ﴾

وهذه الثلاثة هنّ دواعي المشي في الأرض مَرَحاً، يتصوّر أنّ عمله كثير وعبادته كثيرة، وأن ليس له ذنب، وأنّ رأيه أصوب الآراء، والحال، أنّ الله (عزّ وجلّ) هو الذي يزكّي الأنفس، وهو الأعلم بحقيقة الإنسان، هو الأعرف بواقعه وحقيقته وبدايته ونهايته، يقول الله(عزّ وجلّ) في سورة النجم، آية/32:-

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾

لأنّ المقياس الداخلي، مقياس القلب وهو عنده (عزّ وجلّ) وحده، فَرُبَّ أعمالٍ وليست لله.. ورُبَّ عبادةٍ وليست لله.. ورُبَّ مساعٍ وليست لله.. ولهذا ، فالمقياس عند الله:- ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمنِ اتَّقَى﴾

فإذا كان المقياس عنده، فلماذا الخُيَلاء؟!.. ولماذا العُجْب؟!.. ولهذا على الإنسان أن لا يزكّي نفسه ويبقى بين الخوف والرجاء ولا يعجب بعمله، والمفروض أن يدع أعماله هي التي تُزكّيه عند الله(عزّ وجلّ) بمقدار ما فيها من إخلاص!..

رُوِيَ عن الإمام الصادق(عليه السلام):-

﴿أتى عالِم لعابد، فقال له: كيف صلاتك؟.. فقال:-

مثلي يُسأل عن صلاته، وأنا أعبد الله(عزّ وجلّ) منذ كذا وكذا!..

قال له العالِم: فكيف بكاؤك؟.. قال العابد: أبكي حتى أُجري دموعي..

فقال له العالِم:-

فإنّ ضحكك وأنت خائف خير من بكائك وأنت مُدِلٌ، إنَّ المُدِلَّ لا يصعد من عمله شيءٌ﴾

وهذا القول مطابق لقول النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) مخاطباً الأمّة:-

﴿لو قدمتُم على الله بعبادة الثَقَلين، فلا تُدِلُّوا على الله شيئاً، ولو أتيتُم الله

بذنوب الثَقَلين، فلا تَيأسوا من رحمته ﴾

ولهذا تقول الآية الكريمة:

﴿وَلا تَمشِ فِي الأَرْضِ مَرَحَاً﴾

فالآية تعطي معنى أعمّ من السير وهو: أنّ السلوك في الحياة لابد أن يكون سلوكاً متزناً، والسلوك في الحياة بكل جوانبه، يعني سلوكك العام في حياتك، سيرك في حياتك سواءاً كان هذا السير، سيراً على الأقدام أو كان هذا السير، سير فكري أو سير أخلاقي أو سير عبادي!.. لابد أن يكون متّزناً.. ولابد أن يكون على ضوابط إلهية.. وأن لا يكون وفق دواخل نفسية!.. والمَرَح من الدواخل النفسية، نعم، إذا كان المرح ضمن الضوابط الإلهية.. فهو شيء جيد!.. ﴿المؤمن هشٌّ بشٌّ ﴾ وكان رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) لا يُرى إلاّ مبتسماً، وهكذا الأئمة الأطهار، وهكذا الصحابة الصالحين..

أما الآية تريد أن توجه الأمّة وخصوصاً الشباب، لأنّها وصية قرآنية إلى الشباب، يريد الله ﷻ أن يكون السير في الحياة الدنيا سيراً متوازناً، سواءاً كان فكرياً، أخلاقياً، سلوكياً في علاقة الإنسان مع نفسه، عائلته، مجتمعه، ومع الآخرين ككل، ولهذا تأمر الآية الكريمة:-

﴿وَلا تَمشِ فِي الأَرْضِ مَرَحَاً﴾

لأنّها خلاف واقع الإنسان وما ينبغي له وخلاف الصياغة الربّانية لعباد الرحمن، يقول ﷻ واصفاً عباده في سورة الفرقان، آية/63:-

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوناً﴾

هذه كيفية سَير المؤمنين ومشيهم، فإنّهم يمشون بالوقار والسكينة والطاعة والخشوع والتواضع، من دون تكبُّر واستعلاء، لا مرحين ولا مُفسدين، ويقول الإمام الصادق عليه السلام -(في مشي الرجل المؤمن)-

﴿هو الرجل يمشي على سجيّته التي جُبِلَ عليها، لا يتكلّف ولا يتصنّعُ﴾

الوصية التاسعة

الموازنة المطلوبة بين الداخل والخارج

﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

الإنسان إذا ابتعد عن القيم الإلهية والتوجيهات الربّانية سيكون بعيداً عن الله ﷻ، وإذا كان بعيداً عن الله، فالله لا يحبه، لأنّ الله يحبّ مَن يحبونه ويحبّ المطيعين له، الذين آمنوا به وأحبوه وأطاعوه واتقوه، هؤلاء الذين يحبهم الله.. أما الذي يسير في الحياة سيرة مع عدم التفات إلى التوجيهات الربّانية وإلى الأخلاق المحمّدية القرآنية ويمشي في الأرض المشية الغير متوازنة أولئك لا يحبهم الله، ويؤكّد هذا المعنى عندما يقول:–

﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

المختال هو غير المتوازن في داخله، وغير المتوازن في عمله.. لم يُرَبِّ داخله على الموازين الإلهية، لم يغَذِّ نفس بما أمر الله ﷻ، لأنّ النفس فيها التقوى وفيها الفُجور..كما يقول ﷻ في سورة الشمس، آية/**9–10**:–

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾

إذا زَكَّاهَا يكون متوازناً، وإذا أهملها ودسّاها يكون مختالاً، هذا في الداخل.. وفي الخارج، لابد أن يكون خارجه مطابقاً لداخله، وأن تكون الموازنة عنده دائماً بكل فكره وروحه وعمله وسلوكه.. قال تعالى في سورة القصص، آية/**77**:–

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾

إذا اتّبع النص القرآني، إذا اتّبع التربية القرآنية، فلن يمشي في الأرض مرحاً وإنّما يمشي بقصد ووفق الإرادة الإلهية، يمشي وهو منصاع للهﷻ بكل حركة وسكون، بكل قول وعمل، لا يمكن أن يكون مختالاً ﴿إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ غير موازن، وغير متوازن، فلابد أن تكون بغيته الآخرة، ويأخذ حقه ونصيبه من الدنيا المشروعة، هذه الموازنة المطلوبة، النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول:–

﴿إعمل لآخِرَتك كأنّك تموت غداً واعمل لدنياك كأنّك تعيش أبداً﴾

إذا جعل الإثنين أمامه –(الدنيا والآخرة)– وقدّم الآخرة لأنّها دار المقر، وجعل الدنيا معبراً للآخرة، فلا يكون مختالاً.. وإن صعّر خدّه ومشى في الأرض مَرَحاً، فيكون ممن لا يحبهم الله، لأنّ الله وكما يقول في سورة لقمان، آية/18:–

﴿لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

فالمختال هو غير المتوازن بفكره وروحه، بنفسه وعقله، وبعد ذلك في سلوكه وأخلاقه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام :–

﴿ليس منا مَن تركَ آخرته لدنياه، وليس منا مَن ترك دنياه لآخرته﴾

فلابد أن يكون الإهتمام الأكبر بالآخرة لأنّها دار القرار ولأنّها دار الحَيَوان (أي الحياة الباقية)، ولابد أن يعلم حقيقة الدنيا ولا يغترّ بها، فالله جل جلاله، يخاطب الأمة، يخاطب الناس، يخاطب بني آدم في سورة الحديد، آية/20:–

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَينَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَولادِ ﴾

عندما تكون الدنيا بهذا المفهوم، تكون كما قال تعالى في سورة الحديد، آية/20:–

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرَّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَامَاً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ﴾

هذه حقيقة الدنيا!.. إذن، فلماذا الغرور والخُيَلاء؟!.. ولماذا يكون الإنسان مختالاً؟!.. ففي الحديث:–

﴿لو كانت الدُنْيَا تساوي عند الله جَناح بعوضة، ما سقى الكافر منها شربة ماء﴾

فهي لا تساوي عند الله شيئاً!.. ولهذا نرى أنّ الإمام الباقر عليه السلام يقرّب مفهوم العلاقة مع الدنيا للأمّة حيث يقول:–

﴿مَثل الحريص على الدُنْيَا، مثل دودة القزّ، كلما ازدادت من القزّ على نفسها لفّاً، كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غمّاً﴾

فلماذا التعلُّق الزائد في الدنيا؟!.. ولماذا الخُيَلاء؟!.. ولماذا المَرَح الغير إلهي؟!.. ولماذا تصعير الخدّ؟!.. والله ﷻ بقوله:-

﴿لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

يؤكِّد أنّ المفاخرة لابد أن تكون بالتقوى والصلاح، وبالإيمان والعبادة، لابد أن تكون المفاخرة بمقدار علاقة العبد مع الله، بدرجة الصلاح والاستقامة، بالورع والتقوى:-

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾

في هذا لابد أن تكون المفاخرة، ولا تكون بالخُيَلاء والغرور، ولا تكون بأن يمشي على الأرض مَرَحاً، ولا تكون بأن يصعِّر خدّه تكبُّراً، ولا بأن يكون الإنسان مختالاً.. كل ذلك ليس مما يدعو للتفاخر وإنّما كل ذلك لوجود نقص نفسي، لوجود آفات نفسية عند الإنسان وتظهر عنده بهذه الأساليب وبهذه الطرق!.. أما لو كان عالج نفسه وصحّح علاقته مع ربِّه والتفت إلى عبوديته، عند ذلك يعرف قَدْرَ نفسه وأنّه عَبْد لله.. فبمقدار ما فيه من عبودية، وبمقدار ما أنتجت هذه العبودية من طاعة واستقامة، فيكون مرتاحاً سعيداً مطمئنّاً بعلاقته مع ربِّه، سعيداً بعبوديته.. هذا مورد التفاخر، أما التفاخر بمال أو جاه، بثروة أو ملبس، هذه الأمور كلها زائلة لا يصح التفاخر بها، ويعطينا القرآن الكريم مثلاً للتفاخر بالقدرة والمال، فيقول تعالى في سورة الكهف، آية/32-44:-

﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَينِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعَاً كِلْتَا الجَنَّتَينِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئَاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرَاً وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرَاً وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدَاً وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرَاً مِنْهَا مُنْقَلَبَاً قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ: أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدَاً وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدَاً فَعَسَى أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرَاً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانَاً مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدَاً زَلَقَاً أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرَاً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبَاً وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ

عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً هُنَالِكَ الوَلايةُ للهِ الحَقّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً ﴾

هذه مُفاخرة بين رجل ذي مال ولكنه بعيد عن الله ﷻ وبين رجل فقير ولكنه مؤمن، وكيف أنَّ التفاخر الذي حصَلَ من الرجل صاحب الثروة وليس له إيمان، أدّى ذلك إلى ذهاب جنّته ولم يبقَ منها شيء، لأنَّ تفاخره كان بشيء مادي.. أما الإنسان الفقير المؤمن الذي يتفاخر بإيمانه وورعه وتقواه وصلاحه، فهذا ما يبقى له.. القرآن الكريم يريد من الأمّة أن يكون تفاخرها بالورع، بالتقوى، بالصلاح والإستقامة.. يريد من الأمّة جميعاً وخصوصاً من الشباب، لأنَّ الشاب بعمره يكون أقرب إلى التفاخر وأقرب إلى الإختيال والغرور، ولهذا يؤكد القرآن على هذه النّزعات النفسية الموجودة في دواخل الإنسان بصورة عامة وإلى دواخل الشباب بصورة خاصة، لنرى أنفسنا:—

هل نحن ممن يحبهم الله، أو ممن لا يحبهم الله؟..

فهذه الآيات الكريمة هي مُحاورة بين شخصين أحدهما غنيّ كافر والآخر فقير مؤمن، وهكذا كان الأغنياء يتفاخرون على غيرهم بالمال والقدرة، ولهذا قيل بأنَّ قسماً من المشركين كانوا قد اشترطوا على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يطرد المؤمنين الفقراء حتى يُؤمنوا به، أو يُعيّن مجلساً للفقراء ومجلساً للأغنياء حتى لا يجتمعوا عند النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في مكان واحد، لأنّهم (الأغنياء) يزعمون أنّهم سادة وأُمراء والناس عبيد لهم وإماء.. هذا ما كانوا عليه في بداية الإسلام، والآيات الكريمة تُعطينا صورة واضحة للأغنياء المُتكبّرين في شخصِ رجلٍ غنيّ، وصورة للفقراء المؤمنين في شخصِ رجلٍ فقير لا يملك شيئاً ولكنه (هذا الفقير المؤمن) يعتزُّ بخالقهِ، أما الغنيّ، فيعتزُّ بماله.. فالذي يغترُّ بماله ويفتخر به من دون الله (وهو الغنيّ الكافر) يملك بستانين كبيرين عظيمين فيهما زرع كالحنطة والشعير، فيهما أشجار كثيرة ومتنوعة كالنخيل والأعناب، وكل بستان تتفجر فيه عيون المياه بأجمل منظر وألْطَفِ صورة ويؤتي ثمره ونتاجه بأحسن ما يكون وفي وقته وأوانه، حبوباً وفاكهة.. أما المؤمن الذي يعتزُّ بخالقه وإيمانه ويفتخر به، فهو لا يملك شيئاً، فقال الكافر للمؤمن في تفاخرٍ وزهوٍ وغرور:—

أنا أكثرُ منك مالاً وولداً وجاهاً، أُنظرْ إلى ما أملك من أشجار وأنهار وزروع وثمار، وهذا هو المُلْك الدائم الذي يستمر إلى الأحفاد والأولاد بخلاف الجنة التي تتصورون وجودها وتزعمون، أَيُّها السُذَّج، أَيُّها المساكين.. وهل بعد الموت والفناء جنان ونيران؟.. وعلى فرض وجودها، فسيكون حَظّي من الآخرة أكثر منه في الدنيا، لأنَّ المُترف هنا، مُترفٌ هناك.. هذا كان تصوّر الكافر، تصوّر الذي يتفاخر بماله.. أما المؤمن، فكان جوابه للكافر زجْراً وتوبيخاً له، فقال المؤمن للكافر:-

إنَّك تقول هذا كُفْراً بالذي سوَّاك رجلاً، أنت الذي خلقك الله ﷻ، أما أنا فأؤمن باللهﷻ وحده لا أُشرك به أحداً وأحمده وأشكره على هدايته.. ولو أنّك -أيُّها الكافر- من أهل البصيرة والرُشد لآمنتَ بالله ﷻ وتواضعتَ له وشكرتَه على نِعَمه وآلائه ولم تأخذك العزّة بالإثم.. وما إن أكملَ المؤمن كلامه مع الكافر حتى غارت الأنهار.. وسقطت الأشجار.. وهلك الزرعَ.. وذهب كل شيء في جنّة الكافر التي قد اعتزّ وتفاخر بها وقال:-

﴿مَا أَظُنُّ هَذِهِ أَنْ تَبِيدَ أَبَدَاً ﴾

وبعد أن رأى الكافر ما حصل بجنّته نتيجة تفاخره وكل ذلك من صُنع اللهﷻ لجنّتِهِ، قال في انكسار وحسرة:-

﴿يَا لَيتَنِي لَمْ أُشْرِك بِرَبِّي أَحَدَاً﴾

والعِبرة من هذه الآيات الشريفة والقصد منها: يكون الإنسان مؤمناً إيماناً واقعياً، إيماناً فكرياً وعقلياً، قولاً وسلوكاً: بأن لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، وأنّه القادر على كل شيء، وأنّ الإنسان عبد لله، مطيع له، منصاعٌ إليه.. فإذا تفاخر بشيء، فليتفاخر بعلاقته مع اللهﷻ، وإن اعتزّ بشيء، فليعتزّ بطاعته للهﷻ، وإن افتخر بشيء، فليفتخر بأنّه عبد لله...

الوصية العاشرة

أن يكون طريقك هو الله

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشيِكَ﴾

نستفيد من هذا النص القرآني الكريم ومن هذه الموعظة الموجّهة إلى الشباب:-

أولاً: تأكيد على موضوع النية: فلابد أن تكون أعمالك كلها بنية وبقصد، وأن لا يأتي عمل منك -(يا بني)- من دون قصد.. ودائماً الأعمال مرتبطة بالنيّات، كما وَرَدَ في الحديث:

﴿إنّما الأعمال بالنّيَّات﴾

يعني: إنّما الأعمال بالقصد، فيأمره أولاً بالقصد، يعني لابد من وجود النية في داخله حتى يعمل، حتى لا يكون عمله عملاً غوغائياً، عملاً غير مدروس، عملاً غير ملتفت إلى تطبيقه وسلبياته وإيجابياته، ولهذا يأمره بالقصد، بالنية.. يريد أن يقول له: تَرَوَّ عندما تقول شيئاً وتفعل شيئاً، وانظر إلى قصدك ونيّتك، ما هي؟.. ثم اعمل، ثم افعل، ثم تصرّف، ثم قل وتكلم..

أما أن تسرع إلى القول والعمل والتصرف من دون أن تلتفت إلى قصدك ونيّتك فلا تفعل ذلك.. لأنّ ذلك ليس بصحيح، لأنّ عملك يكون عملاً غير منضبط..

ثانياً: إنّ النيّة والقصد مطلوبان بكل شيء، وهما مطلوبان في الحركات الظاهرية أكثر!.. لأنّ الحركات الظاهرية لها وقْعٌ أقوى من غيرها، ولهذا نفهم أنّ القصد هنا بالإضافة إلى التأكيد العام على النيّة وعلى وجود القصد يتأكد كذلك في الأعمال الظاهرية لأمرين:-

الأمر الأول: إنّها أكثر دلالة عند الآخرين...

الأمر الثاني: إنّ الإنسان يُسارع إليها من دون روية، فيقول له: تروَّ والتفتْ إلى نيّتك وقصدك قبل كل شيء...

ثالثاً: نفهم من هذا النص: القصد في السير، يعني القصد في المشي، لأنّه من أوضح مصاديق الحركات الظاهرية، ولأنّه -(السير والمشي)- من أكثر الحركات التي توصِل الإنسان إلى المعاصي وإلى المحرّمات والنواهي، فهو يذهب إليها بقدميه وساقيه!..

هذه الأمور الثلاثة التي نفهمها من الآية المباركة الواعظة إلى الشباب، تؤكّد على موضوع النيّة والإلتفات إلى القصد في العمل بشكل عام، والحركات الظاهرية بشكل خاص

والقصد بالسير بشكل أخص.. ولما كان التأكيد على الإلتفات إلى القصد وإلى النيّة، فلابد أن تكون النيّة صالحة وصادقة وسليمة.. لابد أن تكون النيّة مرتبطة مع الله ﷻ، أي لابد أن تكون النيّة: نيّة إلهية ربّانية في كل قصدك، وفي كل نيّتك، ولا تقل أنّ النيّة لابد أن تكون في العبادات الظاهرية فقط!.. والعبادات الظاهرية هي مثل الصلاة والصوم والحج والخُمس والزكاة، كلا ثم كلا..

إنّما النيّة في كل أعمالك، فعندما تعمل بقصد التوجّه والقربة إلى الله ﷻ، فهي عبادة وهي نيّة، ولهذا يكون لك أجر وثواب.. وعندما تدرس بقصد القربة إلى الله ﷻ، ولأجل أن يَزيدك الله علماً، فتلك عبادة!.. وعندما تصنع لخدمة مجتمعك وأهلك، فتلك عبادة!.. وعندما تزرع، فتلك عبادة!.. وعندما تقول الكلمة الصادقة متقرّباً بها إلى الله ﷻ، فتلك عبادة!.. وعندما تأكل وتشرب بقصد القربة إلى الله ﷻ، لأجل أن يُعينك هذا الطعام والشراب على العبادة وعلى القيام بالواجب وعلى أداء المسؤولية، فكل ذلك عبادة!..

فلابد أن نرى النيّة ومقدار صلاحها وصدقها ومقدار ارتباطها مع الله ﷻ، ثم نعمل، ثم نقول، ثم نتحرّك!.. فهنا القصد بمعنى النيّة، والنيّة لا يمكن أن نفصلها عن الله ﷻ، وعندما تقول الآية:–

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾

لها معنى عام، ولها معنى خاص..

المعنى العام في مشيك في الحياة الدنيا –(في حياتك)– وتشمل كل تصرفاتك...

والمعنى الخاص هو المشي على الأقدام.. فلابد أن تكون قاصداً لعملك في حياتك بشكل عام ولابد أن تكون قاصداً في سيرك ومشيك، أي لابد أن تكون كلها بِنِيَّة، يعني كلها لله ومرتبطة مع الله، يعني كلها منه وإليه، فكل أجزائك هي من نِعم الله عليك، وكل أعضائك من خَلْق الله لك، فلابد أن تستخدمها بطاعته وبما يرضيه وبخدمته وخدمة دينه وعباده.. وهذا القصد وهذه النيّة الصادقة هي لك، فهي تجعل حياتك مطمئنّة سعيدة، وتكوّن من نفسك نفساً راضية مرضية!.. لأنّ الإنسان من دون قصد، يعيش حياة لا معنى لها.. لأنّ الإنسان من دون نيّة وقصد، لا يعرف ماذا يقول؟.. وماذا يعمل؟.. ومن أين يبدأ؟.. وإلى أين ينتهي؟.. فهو في حلقات مفرغة، إن كان لها بداية، فلا نهاية لها...

إذن، فالقصد والنيّة هي لك أولاً، فعندما تخاطب الآية الأمّة بشكل عام والشباب الأحبّاء بشكلٍ خاص بضرورة القصد والنيّة، وتأكيد هذه النيّة مع الله ﷻ، وجوداً واستمراراً ونتيجة، كل ذلك لحفظ الإنسان.. لسعادة الإنسان.. لاطمئنان الإنسان.. يقول تعالى في سورة البقرة، آية/271:-

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ﴾

الإنفاق ليس المال فحسب، الإنفاق هو الكلام، هو الجاه، هو التصرف، هو الحركة!..

فمرة تنفق من مالك، ومرة تنفق من صحتك، ومرة تنفق من وقتك، ومرة تنفق من جهدك، ومرة تنفق من جاهك!. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ﴾ النتيجة لمن؟.. لكم أيّتها الأمّة... لكم أيُّها الشباب... فعندما يكون قصدك خير ونيّتك خير -(والخير لا يكون إلاّ من الله وإلى الله)- فلأنفسكم ولسعادتكم ولاطمئنانكم، لخير الدنيا والآخرة لكم.. وتؤكّد الآية على موضوع العلاقة مع الله وأن تكون العلاقة مع الله صادقة حيث تقول في البداية:-

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ﴾

تؤكّد هذا الإنفاق...

﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ﴾

وهذه الآية تؤكّد على أن تكون القربة خالصة لله ﷻ، وأن تكون النيّة صادقة مع الله تعالى، وأن يكون الدافع هو الله.. وإذا كان الدافع هو الله ﷻ، تقول تتمة الآية:-

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾

عندما تكون قاصداً بعملك، بنية صادقة مرتبطة مع الله ﷻ وتنفق من مالك وصحتك ووقتك وجاهك، يوفّه إليك الله، بل ويزيدك به، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلاَّمٍ للعَبِيدِ﴾ فعندما يأمرك بالنيّة الصادقة والقصد في العمل ويدفعك إلى الأعمال الصالحة، يؤجرك على ذلك ويزيدك من فضله، هذه النيّة مطلوبة ضمن كل الظروف وضمن كل الأوقات وضمن كل الأعمال.. إذن نفهم من قوله تعالى:-

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشيِكَ﴾

أولاً: وجود النيّة..

ثانياً: القصد، يعني الإقتصاد: وهنا تلتفت الآية للشباب، فهو في عنفوان شبابه تتجاذبه كثير من الأيادي، فهذا يريد أن يأخذه إلى جانب، وذاك يريد أن يأخذه إلى الجانب المُعاكس، وهو باعتباره شاب، ففي داخله كثير من الهيجان وكثير من عدم التنسيق!.. وباعتباره شاب، فهو يجمع ما بين الطفولة والرجولة.. فهو مرة قليل النضج، وفي مرة قليل التجربة، وفي مرة قليل العلاقة مع الله.. ولهذا فأنَّ الآية تريد أن تعظ هذا الشاب، فتقول له:-

لا تمشِ أكثر من اللازم والمطلوب، حتى إذا مشيتَ من دون قصد لخطأ أو معصية أو زلل، فالتفت إلى نفسك، فاقتصد من مشيك ولا تُكثر من الخطأ في مشيك ولا تُكثِر من الانحراف في سيرك.. إلتفت إلى نفسك واذكر ربَّك وتلافَ خطأك واستغفر وتب وعد إلى الله، هذا الجانب ملتفت إلى حقيقة في المجتمع وخصوصاً عند الشباب من أهواء وميول، ومن انحرافات فكرية وخُلُقية وسلوكية، فالآية تقول له:-

على رِسلِك.. هُنيئاً.. هُنيئاً.. إلتفت، لا تُسرع.. قلل السير عسى أن تنتبه.. قلل السير عسى أن تعود إلى الله. فهنا القصد بمعنى الإقتصاد في السير...

أما إذا كان السير في طريق الله ولوجه الله، فما أحلى الإكثار منه!.. عندما تذهب إلى المسجد، فيكون لك بكل خطوة كذا من الحسنات، وترفع لك كذا من الدرجات، وتحطُّ عنك كذا من السيئات.. ولهذا عندما يكون المسجد بعيداً عن دارك، يكون ثوابك أكثر!..

وعندما تذهب لتصلح بين أخوين مؤمنين، يكون إصلاح ذات البين خير من عامة الصوم والصلاة المستحبة!..

وعندما تذهب لقضاء حاجة أخ لك مؤمن أو تنفيس كربة أو إدخال سرور عليه، يكون لك من الأجر والثواب ما لا يعدّه ولا يحصيه إلاّ الله!..

وإذا كان سَيرُك إلى صلاة الجماعة وكان عددها يتجاوز العشرة، ففي الرواية لا يُحصي ثوابها إلاّ الله!..

وإذا كان مشيك لطلب العلم، فما أحلى العلم وما أروع العلم!.. وأنت عندما تطلب العلم لوجه الله، فالله ﷻ يُباهي بك الملائكة، والملائكة تحرسك عندما تذهب للعلم وعندما تعود من العلم -(العلم النافع)-!...

وهكذا يريد منا القرآن الكريم -(من الأمّة بشكل عام ومن الشباب بشكل خاص)-يريد منا أن نكون قاصدين بأعمالنا وسلوكنا ، بأقوالنا، بسيرنا، ومَشينا، وأن يستعمل الشاب المؤمن أجزاءه بطاعة الله، لا في المعصية، برضا الله لا في غضبه.. أن يستعمل أجزاءه متقرّباً إلى الله ﷻ لا مبتعداً عنه، حتى تكون أجزاءه له وليست عليه!.. إذن، فأعضاؤك إما لك، وإما عليك ومنها قدمك وساقك ورجلك، فهي إذن امتحان لك واختبار!.. هل تستعمل هذه النيّة بالقصد والنيّة الصادقة؟.. أم تستعملها بأهوائك وشهواتك وميولك؟...

هل تستعملها لله أم للشيطان؟.. هل تستعملها للخير أم للشر؟.. هل تستعملها بقصدٍ ونيّة أم تستعملها استعمالاً أهوجاً من دون التفات ولا مبالاة؟.. يقول تعالى في سورة الأنعام، آية/165:-

﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ﴾

فعندما خَلَقَ لك القدم وخَلَقَ لك رجلك للمشي وأمَرَك بالطاعة وأن تستعملَ ما خَلَقَ لك بالطاعة له ﷻ وفيما يرضيه ونهاك عن المعصية، بأن لا تستعملها في محرّم ولا خطأ ولا زلل.. ولا تستعملها لنفسك وشهوتك وميولك ولا تستعملها للشيطان.. يريد أن يمتحنكم -أيّتها الأمّة بشكل عام والشباب الأعزاء بشكل خاص- فهل تنجحون في الإمتحان؟.. فهل تكون النتيجة النجاح أم الرسوب؟.. فهل تكون النتيجة استعمال ما آتانا الله ﷻ له ولأنفسنا أم عليه وعلى أنفسنا؟.. هنا الإبتلاء.. وهنا الإختبار.. وهنا التمحيص.. يقول الله ﷻ في سورة البقرة، آية/148:-

﴿فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾

يعني التفتوا إلى القصد، نحتاج إلى القصد، إلى النيّة الصادقة وأن يكون العمل والنيّة مطابقة للخير، ولا يمكن أن نفصل الخير عن الله، لأنّه هو الخير ومنه الخير وإليه الخير!.. ولذلك لابد أن تجعل مَشيك لله، ومَشيك طاعة وعبادة، ومَشيك ذكر وتفكّر،

ومَشْيك شُكر وإصلاح!.. واللهﷻ بعد أن أمَرَ بالقصد في الحياة ككل وفي الحركات وفي السير بشكل خاص وأعطانا من النعم ما هو اختبار وامتحان لنا وذلك هل نستعمل هذه النِعم للطاعة أم للمعصية؟.. للخير أم للشر؟.. وأكّد على استعمالها بالخير بقوله:-

﴿فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾

لأنّ إلى الله مرجعنا، فلابد أن نحسب لله حساباً، يعني نقف ونُسأل ولابد أن نُجيب، يقول اللهﷻ في سورة الصافات، آية/24:-

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤولُونَ﴾

وإن لم نُجِب، فالصُحُف موجودة، تلك التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصتها!.. وإذا كانت الصُحُف بعيدة، فالأجزاء والأعضاء تتكلّم، فإلى أين المفر؟!.. يقول اللهﷻ في سورة الأنعام، آية/164:-

﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّؤُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾

يُنبّؤكم بما كان يُلقي الشيطان في أرواحكم، وما يُلقيه عليكم، وما يغرّكم به وما يدعوكم إليه من خطأ وحرام ومعصية وانحراف ونسيان وغفلة، ويذكّركم بالأوامر الإلهية والألطاف الإلهية والنِعَم التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى، يقول اللهﷻ في سورة التين، آية/4:-

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقوِيمٍ﴾

وجعل هذه التركيبة الرائعة، فيقول اللهﷻ لك:-

هل جعلت هذه التركيبة لك للطاعة أم للمعصية؟.. جعلتها للخير أم للشر؟.. جعلتها لله أم للشيطان؟.. أجِب الآن قبل غد، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب، وانظر ماذا قدَّمت لغد؟.. واتّقِ الله.. هناك، أين المفر؟.. هنا، يتوقع الإنسان أنّه مغفول عنه، لكن هناك، أين المفر؟.. يقول تعالى في سورة البقرة، آية/148:-

﴿وَلِكُلّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلّيهَا فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعَاً إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٍ﴾

تأكيد لمعنى القصد، فالوجهة بمعنى قصد الإنسان ووجهته، يعني قصده ونيّته، تريد الآية أن تقول، فلتكن وجهتكم اللهﷻ ورضاه وطاعته.. فهل تعتقدون أنّ هناك مفر من الله، هناك منجى من الله.. لا مفرَّ منه إلاّ إليه..

إذا كنا نلتفت إلى هذه القدرة الإلهية، فلابد أن نكون قاصدين، ولابد أن تكون نيّتنا نية خالصة للهﷻ وأن تكون أعضاؤنا لنا وليست علينا..

الوصية الحادية عشر
أن يكون صوتك كله لله

﴿وَاغضُضْ مِنْ صَوتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصوَاتِ لَصَوتُ الحَمِيرِ﴾

هنا في هذه الموعظة، يريد لقمان أن يهذِّب الفوران الموجود داخل الشاب!.. هذا الفوران مرة يظهر في رفع اليد، ومرة يظهر عن طريق السير من دون قصد، ومرة يظهر عن طريق الصوت!.. وهنا نقول في هذه الموعظة الموجّهة إلى الشباب، أنّ معنى:-

﴿وَاغضُضْ مِنْ صَوتِكَ﴾

هو أنّ الصوت نتيجة حركة اللسان، فيكون معناها: لا تتصرّف بلسانك تصرّفاً محرّماً، تصرّفاً مخالفاً لأمر الله ﷻ، تصرفاً فيه معصية، وذلك في قوله تعالى عندما أَمَرَ المؤمنين أن يغضّوا من أبصارهم، وأَمَرَ المؤمنات أن يغضضن من أبصارهن..

فكما أنّ الأمر الإلهي هناك واجب بغضِّ النظر للمؤمنين والمؤمنات، كذلك هنا ﴿وَاغضُضْ مِنْ صَوتِكَ ﴾ نفهم منه أنّه لابد أن ترتدع عن كل صوت وعن كل كلام فيه معصية اللهﷻ، وأن ترتدع عن كل محرّم حرّمه اللهﷻ..

لأنّ اللسان له أهمية كبيرة وله ثقل كبير في حياة الإنسان ومماته، فهو -(أي اللسان)- تَرْجُمان الضمير، وهو آلة النطق والبيان!.. فهو يُظهر دائماً ما في قلب الإنسان وداخله، وما في ضمير الإنسان وعقله، ولو أننا نراه عضواً صغيراً مكوناً من لحمٍ ودمٍ وشرايين بسيطة، مركّب من أعصاب وشرايين وأوردة إلاّ أنّه في الحقيقة، هذا اللسان هو سر الحياة الصحيحة، سر الحياة المستقيمة، سر الحياة المتعلّقة مع الله ﷻ!.. حتى قيل عن اللسان أنّه نصف الإنسان!..

وذلك لأهميته وفائدته، ولضرره!..

فائدته، إذا استقام وكان مع الله..

وضررُه إذا ابتعد وكان مع الشيطان..

فهو نصف الإنسان والجزء الذي لا يتجزأ من الجَنان، ولهذا نرى أنّ الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام) يقول:-

﴿المرء بأصغريه قلبهِ ولسانهِ﴾

والشاعر يقول:-

لسانُ الفَتى نِصفٌ وَنِصفٌ فؤادُهُ فَلَمْ يبقَ إلاّ صورةُ اللحمِ والدمِ

فالإنسان بلسانه بعدما كان بقلبه، لأنّه ما كان في القلب يُظهره اللسان ودائماً اللسان يأتمر بما يأمره العقل والقلب والضمير!..

إذن فاللسان، هذا العضو الصغير من أعظم النِّعَم وأجلِّها التي حباها الله (جل جلاله) للإنسان ووفّرها له، لذلك يجب على الإنسان وعلى الشباب بشكل خاص أن يتفكّر ويتدبّر أهمية اللسان وأن يعطيه حقه ويصونه عن كل خطأ وحرام ومعصية ورذيلة ولهذا نرى أن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول:-

﴿إنّه لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانهُ﴾

فانظروا إلى مقدار العلاقة ما بين اللسان والقلب والإيمان!.. إنّ الإيمان هو الأساس، وبعد ذلك يتجسّد الإيمان في القلب ويكون القلب مرتبطاً مع الله (جل جلاله)، والقلب يُوحي إلى اللسان بما يقول وما ينطق وما يتكلّم..

ولهذا نرى كذلك الوصايا القرآنية اللقمانية للشباب أكّدت على الإيمان أولاً، والقلب ثانياً ومن ثم جاءت على الأوامر الإلهية، وكان من أهم هذه الأوامر العملية هو:-

﴿وَاغضُضْ مِنْ صَوتِكَ﴾

إلتفت إلى لسانك.. إلتفت لما تقول والتفت لما تتكلم.. ولهذا يقول النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كذلك:-

﴿إذا أصبح ابن آدم، أصبحت الأعضاء كلها تكفِّر اللسان، فتقول للسان: اتّقِ الله فينا، فإنّما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا ﴾

هذا هو التوجيه، التوجيه النبوي للأمّة، للناس جميعاً، لأبناء آدم جميعاً وخصوصاً إلى عينتهم وزينتهم وهم الشباب، فأعضاء الإنسان كلها تنادي اللسان:–

﴿اتّقِ الله فينا﴾

فَبِكَ ندخل الجنّة وبك ندخل النار.. فَبِكَ النعيم وبك الهلاك.. فَبِكَ الخير وبك الشر..فَبِكَ السعادة والإطمئنان وبك القلق والإضطراب، ولهذا تأمره:–

﴿اتّقِ الله فينا﴾

فإنّما نحن بك، سعادتنا مرتبطة بك، دنيانا مرتبطة بك، بما تقول.. وآخرتنا مرتبطة بك، بما تقول.. ولهذا إذا استقمت فيما تقول وقلتَ ما يرضي الله ﷻ، استقمنا جميعاً (نحن أعضاء البدن)، وإن اعوججتَ فيما تقول، وإن انحرفتَ وأخطأتَ وعصيت وابتعدتَ، ابتعدنا جميعاً (نحن أعضاء البدن) ونكون جميعاً عاصين خاطئين مذنبين، يقول الإمام زين العابدين علي بن الحُسين عليه السلام الذي هو من مدرسة أهل البيت، ومدرسة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) والقرآن، يقول:–

﴿إنَّ لسان أبن آدم يُشرف في كل يوم على جوارحه، في كل صباح، فيقول: كيف أصبحتم؟.. (أي يسأل الجوارح: كيف أصبحتم؟.. فتُجيبه الجوارح) فيقولون: بخير إن تركتنا، ويقولون: الله الله فينا، ويُناشدونه ويقولون: إنّما نُثاب ونُعاقب بك﴾

الصورة الأولى كانت:–

الجوارح تتحدث مع اللسان وتقول له:–

﴿اتّقِ الله فينا، فإنّما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا﴾

الصورة الثانية:–

اللسان هو يتكلم مع الجوارح، فيقول لها:–

﴿كيف أصبحتم؟.. (أي يسأل الجوارح: كيف أصبحتم؟.. فتُجيبه الجوارح):- بخير إن تركتنا﴾

نحن بخير إن تركتنا من سوء كلامك، من سوء ما تقول، من سوء لفظك.. إن تركتنا من معاصيك، مما تلفظ من كذب وغيبة ونميمة وبهتان، مما تقوله من غلط فكري أو عملي ﴿إنّما نُثاب ونُعاقب بكَ﴾ .

فهو مصدر الإثنين، مصدر الخير ومصدر الشر، ولهذا نرى الصحابي الجليل والتلميذ العزيز لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أبا ذر الغفاري(رضي الله عنه) يقول:-

﴿يا مُبتغي العلم إنَّ هذا اللسان مفتاح خير ومفتاح شر، فاختم على لسانك كما تختم على ذهبك وورِقك﴾

فهو مصدر الخير والشر ولهذا لابد من الإلتفات إليه والحرص عليه والمحاسبة له بشكلٍ دائم وتربية مصدره الذي يخرج منه الكلام وهو القلب الذي هو مرتبط مع الإيمان.. فلابد أن نُنَزّه القلب حتى يقول اللسان ما هو سليم ولابد أن نؤكّد علاقة القلب مع الله تعالى حتى يُعطي ما هو خير، ومن بديع ما يُقال قول الشاعر:-

جراحاتُ السِنانِ لها التئامُ ولا يلتئمُ ما جرحَ اللسانُ

فعندما يُطعنُ الإنسان برمحٍ أو سكين، يُداوى.. أما الكلمة عندما تكون كلمة فاسدة، كلمة عاصية مُنحطّة لا تلتئمُ إلاّ بإصلاح الأساس، بإصلاح القلب.. لأنَّ اللسان مُترجم للداخل، فَلَرُبَّ كلمة لفكرةٍ ضالّة أحرقت المئات والآلاف، ولَرُبَّ كلمة لاندفاعٍ سيئ أراقت الدماء والدماء.. ولهذا نرى أنَّ التربية القرآنية للأمّة تؤكّد على مسألة اللسان وأهمية اللسان وضرورة الإلتفات إليه التفاتاً دقيقاً كاملاً وعدم تَرْكهِ بدون سيطرة ويجب عدم الهذيان، يقول تعالى في سورة ق، آية/**17-18**:-

﴿إذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَولٍ إلاّ لَدَيهِ رَقِيبٌ عَتيدٌ﴾

ما هذه الأهمية لهذا اللسان؟!.. ما هذا الحجم الإلهي الذي يُعطيه لهذا اللسان؟!.. ما هذه الرقابة الربّانية الصارمة لهذا اللسان؟!..

والتعبير رائع –أَيُّها الأحبة– فإنّهم يتلقون ما تقول، فإنّهم يستمعون لما تقول، والتَّلقي يعني أنّهم يظنون بك خيراً، لأنَّ التعبير فيه منتهى الأخلاق والأدب والرحمة والشفقة!.. فهم يتلقون منك، ومن هم؟.. هم ملائكة ربِّ العالمين!.. أحدهم عن اليمين وأحدهم عن الشمال، يكتبون كل شيء تقوله وتلفظه.. اللهﷻ هو الذي يعلم خائنة الأعين وما تُخفي الصدور ولكن يكتبون كل ذلك لإتمام الحُجّة علينا!.. لأنّنا غداً نقف بين يدي الله ونُحاسب على كل قول وفعل، على كل كلمة ولفظ وحرف، ولهذا فالمَلَكان يُسجلان ما يقوله الإنسان عن اليمين وعن الشمال، أمّا كيفية التسجيل، فالله أعلم، وما حصل في القرن العشرين من تطورات في العلم ووصول الإنسان إلى هذه الدرجات في العلم وعَلِمنا أشياء ما كُنّا نتصورها قبل سنين ولا تخطر ببالنا، فالإرادة الإلهية أقوى من كل ذلك!..

فهل يحفظون ما نقول أو يكتبون ما نقول؟!.. أو أنَّ الكلمة تبقى محفوظة في الجوّ وبعد ذلك تظهر لنا أو غير ذلك؟!!.. الله العالم..

ولكن نحن ما دُمنا عبيد مؤمنين بالله ﷻ لابد أن نُؤمن بما يقوله لنا، وعندما نؤمن بما يقوله لنا، نؤمن أنَّ هناك ملائكة يكتبون ما نقول ويحفظون ما نقول، ولهذا نرى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول:–

﴿إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوانه، من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغَ ما بلغتْ﴾

يتصوّر أنّها بسيطة صغيرة، يتصوّر أنّها لا أهمية لها ولا قيمة لها، فالكلمة مثلاً:–

من قال استغفر الله بقلبٍ صادق، أو قال كلمة، فأصلح بين اثنين أو قال كلمة صغيرة وَعَظَ الآخرين بها، يكتب اللهﷻ له رضوانه إلى يوم يلقاه!.. هذه الكلمة تبقى مُشعّة في سجله برضوان الله ﷻ إلى يوم يقف بين يديه، تبقى هذه الكلمة معطاءة له بالثواب والأجر والبركة إلى يوم موقفه بين يدي الله..

ومقابل هذا وهو تتمة الحديث:–

﴿وإنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة من سخطه تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه ﴾

هذه كتلك، كما أنَّ الكلمة الطيبة الصادقة المخلصة بقيت تشعُّ بالنور والعطاء

والأجر والثواب لصاحبها من لحظة قولها إلى يوم لقاء الله ﷻ، كذلك الكلمة التي لا تُرضي الله ﷻ –التي تُغضب الله– الكلمة الكاذبة، الكلمة الضالّة المنحرفة، الكلمة الخاطئة والفتنة والكذب والغيبة والنميمة والبهتان، يكتب الله تعالى له سخطه إلى يوم يلقاه، هذه الكلمة تُعطي زجرها وضررها وإثمها وسلبياتها من لحظة تَلَفُّظِها إلى يوم يلقاه!.. ولا يعلم مدى فِعْل تلك من الخير، وما فعلت هذه من الشر، لأنَّ الكلمة في كثير من الأوقات هي سُنَّة ﴿مَن سنَّ سُنَّةً حَسَنة، فَله أجرها وأجر مَن عَمِل بها إلى يوم القيامة، ومّن سنَّ سُنَّة سيّئة ، فعليه وِزرها ووِزر مَن عمِل بها إلى يوم القيامة﴾، فعندما طَعَنتَ بأحد أو طَعَنتَ لأحد أو اتهمتَ أحداً أو كفَّرتَ مسلماً أو فسّقتَ مؤمناً، فهذا إثم، ويبقى الإثم مستمراً لك وعليك وكل من يعتقد بكلامك، يكون إثمه عليك إلى يوم القيامة..

نرى أحد العارفين بالله ﷻ الذين سلكوا طريق الله وتعرّفوا على الله وعرفوه وأحبّوه وأطاعوه، يُقال أنّه كان في سَكرة الموت وأخذ يئنُّ، يئنُّ من السَكَرات، ولكنّه تذكّر أنّ الأنّة محسوبة وأنّ الأنّة مكتوبة والرقيبان يكتبان كل شيء، فَحَذر أن تكون هذه الأنّة فيها نوع من الإعتراض، فيها نوع من عدم الرضا، فأخفى أنّته!..

هكذا هو الإنسان المؤمن، يحاسب نفسه على الأنّة!.. فكيف بالكلمة؟!.. فكيف بالجملة؟!.. فكيف بالكلام؟!.. ولهذا نرى أنَّ الإمام سيد المُوحدين وإمام المؤمنين بعد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لمّا سمع رجل يتكلم بفضول الكلام، فقال الإمام له:–

﴿يا هذا إنّك تُملي على حافظيك كتاباً إلى ربّك ﴾

يُسمّي الإمام عليه السلام الملائكة بالحافظين لأنّهم سفراء الله ﷻ، والسفير يأتي بالرسالة ويأخذ الجواب، ولهذا يوضّح الإمام عليه السلام:–

إنّ ما تقول كتاب إلى الله ﷻ...

إنّ ما تتلفّظ رسالة منك إلى ربِّ العالمين...

فهذه مهمة الملائكة، في كل يوم تعرج بعمل بني آدم، ماذا قال؟.. ماذا فعل؟..

ولهذا يقول الإمام عليه السلام:–

﴿يا هذا إنّك تُملي على حافظيك كتاباً إلى ربّك، فتكلّم بما يعنيك ودعْ ما

لا يعنيكَ ﴾

تكلّم ما يعنيك، تكلّم في علاقتك مع ربك، تكلّم في علاقتك مع نفسك، تكلّم بإصلاح نفسك، تكلّم وكن واعظاً متعظاً ودع ما لا يعنيك..

ولهذا نرى الله ﷻ يعطينا أمراً في صيغة الكلام وأسلوب الكلام ومنهجية الكلام وهذا موجّه للأمّة بشكل عام وللشباب الأعزاء بشكل خاص، يقول تعالى في سورة النساء، آية/114:-

﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلَكَ ابْتِغَاءَ مَرْضاةِ اللهِ فَسَوفَ نُؤتِيهِ أَجْرَاً عَظِيمَاً ﴾

النجوى: الكلام، أي الصوت الذي يخرج من اللسان، فالآية تريد أن تؤكّد أنَّ الكلام بما لا يعني من اللاخير فيه واللافائدة فيه..

أما أهم المصاديق للكلام الذي له فائدة وعطاء، فهو الأمر بالصدقة وببذل المال ومساعدة الفقراء وذلك بالتشجيع على مساعدة الفقراء والإلتفات إليهم بمعيشتهم، بأكلهم وكسوتهم وما شابه ذلك من الصدقة والأمر بالصدقة والتشجيع عليها، فتلك كلمة لله وتلك كلمة لوجهه، ولهذا تكون لك ولا تكون عليك..

﴿أَو مَعْرُوفٍ ﴾

المعروف مقابل المنكر، والمعروف هو ما شَرَعَه الشارع وأَمَر به، فكل الأعمال الخيّرة وكل الأعمال الصالحة ذات النفع العام والنفع الخاص، ذات النفع للأمّة، للآخرين، لأهلك وشعبك وإخوانك، فكلها معروف..

الكلمة الطيبة معروف ﴿الكلمة الطيبة صدقةٌ ﴾ الوعظ، الإرشاد، النصيحة، الدعاء للآخرين من المعروف، بيان حُكم شرعي للآخرين معروف، ومصاديق المعروف هي مفردات الشريعة، لأنّ الشريعة كلها معروف...

﴿إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾

بالتأكيد أنّ الإصلاح بين الناس هو من أوضح مصاديق المعروف، ولأهميته ذكَرَه اللهﷻ بشكل منفرد لكي يلتزم المجتمع به -أفراداً وأمّة- ولهذا ذَكَره بنصٍ مستقلٍ، ولهذا فالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول:-

﴿إصلاح ذات البين، خيرٌ من عامة الصلاة والصوم﴾

الصوم والصلاة المستحبة، لأنّك إن لم تقم بالصوم والصلاة المستحبة اليوم، تقوم بها غداً، أمّا تَرْكُ المتخاصمين من دون إصلاح يمكن أن يترتب عليه من الأضرار والمآسي الكثير والكثير.. وبعد ذلك، إنَّ إصلاح ذات البين عبادة كما هو الحال في الصوم والصلاة إلاّ أنَّ وقت إصلاح ذات البين يكون مُضيّقاً وذاك وقته موسّعاً، فهذا يُقدّم على ذلك.. ولكن يجب أن تكون هذه الأعمال كلها بصغيرها وكبيرها مرتبطة مع الله ﷻ ابتداءاً واستمراراً ونهاية.. أما إذا كان يُعطي صدقة أو يقول المعروف لكي يُعلَم أنّه ذو مال أمام الناس حتى يُعطي للآخرين أو يتصدق للآخرين أو يتكلم بكلام جيد أمام الآخرين، فهو لا يبتغي وجه الله ﷻ، فلا شيء له...

أما إذا كانت الصدقة والمعروف وإصلاح ذات البين كله لوجه الله وابتغاء مرضاة الله ﷻ، الدافع هو الله، حبُّه وطاعته ﴿فَسَوفَ نُؤتِيهِ أَجْرَاً عَظِيمَاً﴾ عطاءاً غير محدود، وعطاء الكريم لا نهاية له، فعندما تقول الآية القرآنية الموجّهة إلى الشباب:-

﴿وَاغضُضْ مِنْ صَوتِكَ﴾

يعني لابد أن نفهم قيمة الصوت، قيمة هذا الجزء الذي يخرج منه الصوت وهو اللسان، ما أعظمه، ما أكبره!.. ما أعظمه وما أحقره!!.. ما أعظمه إن كان مع الله، وما أحقره إن كان مع الشيطان.. ما أجَلّه إن كان مع الله، وما أسوأه إن كان مع الشيطان.. ما أروعه إن كان مُتعلّقاً بالإيمان، يكون له خير الدنيا والآخرة كما يقول تعالى في سورة العصر:-

﴿وَالعَصرِ إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمَلُوا الصَالِحَاتِ وَتَوَاصَوا بِالحَقِّ وَتَواصَوا بِالصَبْرِ﴾

فانظروا، إنَّ الإنسان على خُسر، وإنَّ اللسان بِخُسر والله ﷻ يُقسِم:-

﴿وَالعَصرِ إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إلاّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾

فلابد أن يملأ قلبك الإيمان.. لابد أن تعيش الله في قلبك ولابد أن يكون قلبك بيتاً من بيوت الله.. إذا كان هذا قلبك، فلابد أن يتجسّد ما في هذا القلب بالعمل ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمَلُوا الصَالِحَاتِ﴾.

قلب يملؤه الله، لابد أن يكون عملك كله لله، لابد من أن لا تكون ناسياً ولا مُعرضاً عن اللهﷻ طرفة عين لأنّه في قلبك.. وعندما تكون مؤمناً ويكون الله ﷻ في قلبك وتعمل صالحاً، فأوضح مصاديق العمل الصالح كما تنص الآية هو ما يكون في اللسان:-

﴿ وَتَوَاصَوا بِالحَقِّ وَتَواصَوا بِالصَبْرِ﴾

والحقُّ هو اللهﷻ، يعني لابد أن يكون كلامك تواصياً بالله، تذكيراً بالله وبنعمه، أولاً بوجوده، بوحدانيته وحبِّه وطاعته، ومن ثم بآلائه وشكره.. ولهذا الربط بين القلب واللسان، بين الإيمان وبين اللسان، يقول النبيُّ(صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو يسكت﴾

هذا الربط، فإن كان هناك إيمان، لابد أن تقول الخير أو تسكت.. ويتمُّ النبيُّ(صلى الله عليه وآله) يقول:-

﴿ورحِمَ الله عبداً تكلّم خيراً أو سكت عن سوء فسلمَ﴾

فالكلمة عندما تكون في داخلك، أنت الذي تملكها وعندما تكون قد خرجت، فهي التي تملكك!.. ولهذا يقول:-

أما أن يتكلّم بخير، فيحصل الثواب والأجر ويكون قد غنِمَ.. وأما أن يسكت ولا يتكلّم، فيسلَم، ويقول في هذا الباب (صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿إخزِن لسانك إلاّ من خير، فإنّك بذلك تغلِب الشيطان﴾

أقفلْ على لسانِك واغضضْ من صوتك، ولا تتكلّم إلاّ بما يُرضي الله ﷻ، فإذا التفتَّ إلى ذلك وفعلتَ، تكون قد غلَبتَ الشيطان.. ويقول (صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿إنّ الله عند لسان كل قائل، فليتّقِ الله امرؤٌ على ما يقول ومَن لم يحسِب كلامه من عمله، كثُرت خطاياه وحضر عذابه﴾

هذا الحديث النبوي الشريف يؤكّد على أهمية الإلتفات إلى اللسان، وكيف أنّ اللهﷻ عند لسان كل قائل، وهذا واضح، لأنّ الله في كل مكان ولا يخلو منه مكان، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد إلاّ أنّه لأهمية هذا العضو ولأهمية ما يقول، فيؤكّد النبيُّ(صلى الله عليه وآله وسلم) إنّ الله عند لسان كل قائل، فنتيجة هذا يقول (صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿فليتّقِ الله امرؤٌ على ما يقول﴾

لابد أن يجعل الله ﷻ أمامه وبين عينيه، عندما يريد أن يقول قولاً ويتلفّظ لفظاً.. لابد أن يرى هل للهﷻ في الكلام رضا أم لا؟..

فإذا كان لله رضا، فليقله.. وإذا لم يكن لله فيه رضا، فليسكت وليتّقِ الله..

ويلتفت بعد ذلك النبيُّ(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى مسألة هامّة جداً اجتماعياً، وهي مسألة الهَذيان في الكلام وعدم الإلتفات لما يقول ولهذا يؤكّد النبيُّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله:-

﴿ومَن لم يحسِب كلامه من عمله، كثُرت خطاياه وحضر عذابه﴾

هناك كثير من الناس يتكلّم ويتصوّر أنّ الكلام سهل وأنّ تركيب الجُمَل بالشيء البسيط ولا يتعب لسانه من كثرة الكلام، ولهذا تراه يتكلّم من دون التفات إلى أهمية الكلام وإلى سلبيات وتأثير الكلام وإلى مدى ما يحصل من جرّاء هذه الكلمة أو هذه الجملة من سلبيات وتأثير، ومن الممكن أن يكون كلامه سُنَّة سيّئة يتحمّل وزرها ووِزر من عمِل بها إلى يوم القيامة.. ولهذا يقول (صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿ومَن لم يحسِب كلامه من عمله﴾

لا تتصوّر أنّ هذا الكلام يخرج منك من دون أي نتيجة، فهناك -(النتيجة)- أما إيجابية، فيكون لك ثواب.. وأما سلبية، فعليك عقاب.. لأنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول أنّ هذا الكلام من عملك، ولو لم يكن من عملك لما جعل مَلَكين يكتبان كما في سورة ق، آية/18:-

﴿مَا يَلفِظُ مِن قَولٍ إلاَّ لَدَيهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

فهو من عملك ومن أهمّ أعمالك التي ستحاسب عليها.. فهو من عملك إذن، وإذا كان من عملك وتكلّمت من دون التفات ومن دون وَرَع، تكون النتيجة:-

﴿كَثُرت خَطاياك وحَضَر عذابك﴾

سواءاً كان عذاباً دنيوياً أو عذاباً أُخروياً..

العذاب الدنيوي: الذي يتكلّم بما لا يعنيه ويتكلّم الخطأ والنميمة والغيبة والبهتان والفُحش والكلمات البذيئة، يكون عذابه دنيوياً عند الناس في المجتمع، وله عذاب شديد

في الآخرة.. والنبيُّ(صلى الله عليه وآله وسلم) نراه يربط في حديث آخر مسألة اللسان بالإيمان وأنَّ الإنسان بمقدار إيمانه يحفظ لسانه، ولهذا يحتاج الشاب إلى درجة من الإيمان قوية لأنّه في فوران شبابه، لأنّه في عزِّ صحته ونشاطه، فلابد أن يكون له درجة قوية من الإيمان حتى يتمكن من لسانه، يقول (صلى الله عليه وآله وسلم):–

﴿ولا يعرف عبد حقيقة الإيمان حتى يخزن من لسانِهِ﴾

وهكذا نرى الربط الوثيق بين الإيمان وبين خَزْن وإمساك اللسان والقدرة على التصرف باللسان.. فمرة يربط موضوع اللسان بالإيمان كما في الحديث السابق، ومرة يربط اللسان بموضوع العقل، فيقول:–

﴿على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه مُقبلاً على شأنه حافظاً للسانه﴾

العقل وما أدراك ما العقل؟!.. العقل والإيمان هما في كفتي ميزان، فلا إيمان من دون عقل، ولا عقل من دون إيمان!.. هذا العقل، الموهبة الربّانية العظيمة، اللطف الإلهي الكبير الذي جعله في الإنسان وخاطبه:–

﴿بك أُثيب وبك أُعاقب﴾

هذا العقل الذي جعل من الإنسان أشرف مخلوقات الله ﷻ وأعزّ مخلوقاته وجعله عبداً لله!.. والنبيُّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يُعطينا للعقل ثلاثة أمور:–

الأمر الأول:–

﴿أن يكون عارفاً بزمانِهِ﴾

بما يحيطه، بمجتمعه وأهله، بالمستوى الفكري والعلمي والثقافي والمستوى الأخلاقي.. لأنّه عندما يكون عارفاً بزمانه، يتمّكن أن يخدم أهل زمانه، يتمكّن أن يقوم بمسؤوليته ويؤدّي واجبه لهم.. أما إذا كان يعيش في عقل آخر وفي زمان آخر، فلن يمكن له أن يتفاهم مع أهل زمانه!.. فلابد أولاً أن يكون عارفاً بزمانه، حتى تكون أدوات التخاطب موجودة بينه وبين أهل زمانه، حتى ينفذ لهم، حتى يوصِل لهم الكلمة الطيبة، النصيحة، الخدمة..

الأمر الثاني:–

﴿مُقبلاً على شأنهِ﴾

شأنه أي ما يلزمه وما يجب عليه، فشأن الإنسان هو حمل الرسالة، هو حمل الأوامر الإلهية، هو الخلافة في الأرض.. فعندما يلتفت إلى واجباته ومسؤولياته، فهو لم يكن قد خُلِق عَبَثاً، وإنّما خُلِق لضرورةٍ ولأهميته ولدوره وخلافته وبذلك يكون مقبلاً على شأنه..

الأمر الثالث:-

﴿حافظاً للسانه﴾

بعد هذا العقل الذي يكون عارفاً بزمانه ومقبلاً على شأنه، يكون حافظاً للسانه.. لأنّه يعلم أنّ كلامه من عمله وعندما علم أنّ كلامه من عمله لابد أن يكون حافظاً للسانه، يكون في مأمن!.. عندما تكون الكلمة في داخلك، أنت الذي تملكها، وعندما تخرج هي التي تملكك، ولهذا نرى النبيُّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول في حديث آخر:-

﴿لا يزال المؤمن يُكتَب محسناً ما دام ساكتاً، فإذا تكلّم كُتِب محسناً أو مسيئاً﴾

فما دام ساكتاً وهو مؤمن بالله ﷻ ذاكراً لله، يُكتَب محسناً، لأنّ المؤمن تفكُّرهُ عبادة.. أما إذا تكلّم، عند ذلك يكتب ما يقوله الرقيب والعتيد، وعند ذلك أما أن يكون محسناً أو مسيئاً، فإذا تكلّم بالخير، يكون محسناً، وإذا تكلّم بالشر يكون مسيئاً.. والشاعر يقول:-

إحفظْ لسانكَ واحترسْ من لفظهِ فالمرءُ يسلَمُ باللسانِ ويعطِبُ
وَزِنِ الكلامَ إذا نطقتَ ولا تكنْ ثَرثارةً في كلِ نادٍ تخطِبُ
كمثالِ جاهلةٍ تطوفُ بلبِها مِكثارةٍ في كلِ وادٍ تحطبُ

ويقول شاعر آخر، والشعر هو فاكهة للحديث، فإننا لا نحتاج إلى قول الشعر بعد ذكر القرآن والأحاديث النبوية وأحاديث أهل البيت ولكن نحن نذكر الشعر لترطيب الجو، فيقول الشاعر:-

إذا شئتَ أن تحيا سليماً من الأذى وذنبُكَ مغفورٌ وعِرضُكَ صَيِّنُ
لسانُكَ لا تذكرْ بهِ عَورةَ امرئٍ فكـلُّكَ عَوراتٌ وللناسِ ألسُـنُ
وَعينُكَ إنْ أبدتْ إليكَ مساوياً فدعْها وقُلْ يا عَينُ للناسِ أعيُنُ

وَعاشِرْ بِمعروفٍ وسامِحْ مَنِ اعتدى وفارِقْ ولكنْ بالتي هيَ أحسـنُ

فلابد إذن من الإلتفات إلى اللسان وأهميته وحفظه وجعله في طاعة الله، ولهذا نرى أنّ الإمام علي بن موسى الرِضا(عليه السلام) يقول:-

﴿إحفظْ لسانك تُعز، ولا تمكّنْ الناس من قِيادك وتذل رقبتك ﴾

شاهدنا حفْظ اللسان، يعزُّ الإنسان، لماذا يعزُّه؟..

أولاً: لأنّ الثرثرة وكثرة الكلام هي من الإبتذال ، والإبتذال ضد العزّ وضد الإعتزاز.

ثانياً: كثرة الكلام توقِع الإنسان في الأخطاء، والأخطاء بعضها حرام، بعضها لا داعي له، بعضها من فضول الكلام، فهي خلاف العزّ، ولهذا يقول:-

﴿إحفظْ لسانك تُعز﴾

ولتكن النجاة بلسانك، فلا تستعمله إلاّ بعد الإلتفات والتقوى والتمحيص، ولهذا جاء رجل إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) وسأله:- ما أخوف ما يُخاف عليَّ؟..

فأخذ النبي بلسانه وقال:-

﴿هذا﴾!.

وسأل أيضاً: ما النجاة؟

فقال (صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿إملِكْ عليك لسانكَ ﴾

ويقول في حديث آخر:-

﴿نجاة المؤمن بحفظ لسانهِ ﴾

وكما أنّ نجاة المؤمن بحفظ لسانه، يكون العقاب باللسان كذلك، ولهذا نرى أنّ شاباً ذهب إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فقال:- يا رسول الله، أوصِني..

قال له الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿إحفظ لسانكَ ويحك، وهل يُكَبُّ الناس على مناخرهم في النار إلاّ حصائد ألسنتهم ﴾

ولهذا نرى أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول في حديث آخر:-

﴿أكثر ما يُدخل الناس النار، الأجوفان ، الفم والفرج﴾

فكما أنَّه مدعاة للنجاة، كذلك هو مدعاة للعقاب والعذاب والنار وغَضَبِ الله ﷻ، ونرى كما أنَّ اللسان يجرُّ بصاحبه إلى النار وإلى جهنم وإلى العذاب والعقاب إذا انحرفَ وأخطأ وعصى، كذلك يجرُّ بصاحبه إلى الجنة إن أمْسَكه وتكلم بما يُرضي اللهﷻ بالطاعة، بالإستغفار والتوبة، بذِكْر الله، بالنصيحة والكلمة الطيبة، بالوعظ والإرشاد، بإصلاح ذات البين.. ولهذا نرى أنَّ شاباً جاء إلى النبيِّ(صلى الله عليه وآله) وقال:– دُلّني يا رسول الله على عمل يُدخلني الجنة..

فأجابه الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) والجواب إليه وإلينا جميعاً:–

﴿ أطعمْ الجائع واسقِ الظمآن﴾

فإذا كان مؤمناً جائعاً أو إنساناً جائعاً وتمكنتَ من إطعامهِ وأرويته من الماء مُتقرباً بذلك إلى اللهﷻ ونجّيته من هَلَكة الجوع والعطش يكون سبباً لدخولك الجنة.. وماذا بعد يا رسول الله؟..

﴿وَأمُرْ بالمعروف وانهَ عن المنكر ﴾

هذا الواجب الإلهي الذي يجب عليك تجاه نفسك وأهلك ومجتمعك، أن تأمرهم بما أمر به الله وأن تنهاهم عما نهى عنه الله حتى تكون خليفة في الأرض، بعد ذلك يقول النبيّ(صلى الله عليه وآله):–

﴿فإن لم تُطِقْ فكفَّ لسانك إلاّ من خير، فإنّك بذلك تغلب الشيطان ﴾

إذا كنتَ لا تتمكّن من الأول ولا الثاني، فكُفَّ لسانك إلاّ من خير، إلتفت إلى ما تقول إن كان خيراً فقله، وإن لم يكن فيه خير، فاسكت.. وإذا فعلت ذلك، فإنّك تغلب الشيطان.. وإن لم تفعل فالشيطان يغلبك!.. ويكون الشيطان وليّك عوضاً عن اللهﷻ لأنّك أطعته.. وقال النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لشاب آخر أتاه:–

﴿ألا أدلُّك على أمر يدخلك الله به الجنةَ ﴾

قال :– بلى، يا رسول الله (فِداك أبي وأمي).. قال:–

﴿أنِلْ مما أنالك الله﴾

اللهﷻ أعطاك الكثير من العلم، من جاه ومال، فأعطِ منها..

قال له الشاب:– فإن كنتُ أخرج ممن أُنيله..

قال الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم):–

﴿فانصر المظلوم ﴾

إذا رأيت شخصاً مظلوماً، فحاول أن تنصره، حتى وإن كانت نصرتك له بالكلمة الطيبة والنصيحة والموعظة..

قال الشاب:–فإن كنت أضعف ممن أنصره..

قال (صلى الله عليه وآله وسلم):–

﴿فأصمِتْ لسانك إلاّ بالخير، أما يسُرُّك أن تكون فيك خصلة من هذه الخِصال تجرُّك إلى الجنة ﴾

ولهذا يقول (صلى الله عليه وآله وسلم) مخاطباً الأمّة وخصوصاً الشباب:–

﴿مَن يتكفَّل لي ما بينَ لِحييهِ ورجليهِ، أتكفَّل له بالجنة ﴾

يعني اللسان والفرج..

كل ما تقدّم في حديثنا عن اللسان وأهميته وضرورة استعماله بطاعة الله، يعني بالضرورة، لابد للإنسان أن يكون محاسباً للسانه وملتفتاً إليه، لا يتكلّم من دون أن يلتفت كما يقول الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام):–

﴿يا ليتَ لي عُنُق كعُنُقِ البعيرِ﴾

وهو معصوم من الخطأ، وهو إمام، وهو نفس رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ..

وكان الربيع بن خيثم وهو من المؤمنين الصالحين والأتقياء الوَرِعين المعروفين بالإيمان والاستقامة، كان يضع قِرطاساً بين يديه، فيكتب كل ما يتكلّم به ثم يحاسب نفسه في كل ليلة ليرى ماله وما عليه ويقول بعد ذلك:–

–آه.. آه.. نجا الصامتون وبقينا.

وهذا من أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) !..

فلابد أن يلتفت الإنسان إلى قوله وإلى لسانه، أن لا يكذب.. أن لا يستغيب.. أن لا يشتِم.. أن لا يكفِّر مسلماً.. أن لا يفسِّق مؤمناً.. أن يحترم الجميع.. أن يقدّر الجميع،

وخصوصاً مَن كان ظاهر الإيمان وظاهر الصلاح وظاهر الوَرَع وظاهر التقوى، وخصوصاً العلماء والمجتهدين والذين هم وَرَثة الأنبياء كما في الحديث:-

﴿العلماء وَرَثَة الأنبياء ﴾

لابد من الإلتفات إلى ما تقول عنهم وإلى ما تصفهم، وأن يلتفت الإنسان إلى لسانه بأن لا يكذب، فالله ﷻ يقول في سورة النحل، آية/116-117:-

﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

فعليه أن لا يُكثِر من كلامهِ بالشكل الذي يقع فيه الكذب على الله ويحلِّل الأشياء من عنده ويُحرِّم الأشياء من عنده، فذلك افتراء على الله ﷻ، والله يقول في سورة النحل،آية/105:-

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ ﴾

فالذي يُسنِد إلى الله ﷻ، قولاً أو فعلاً أو حُكْماً أو أي شيء من غير دليل واضح قاطع، فقد افترى على الله الكذب.. وقد يسأل سائل عن قول الله ﷻ في الآية السابقة في سورة النحل،آية/105:-

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ ﴾

وهذا حصر للكذب بالكافرين، مع أننا نرى بعض الكافرين أصدق في أحاديثه من بعض الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر!..

قد يُطرَح هذا السؤال، والجواب هو أنّ المسلم الكاذب، مؤمن بالله نظرياً وكافر عملياً!.. فهو بوصفه مؤمناً نظرياً وفكرياً، يعامَل في الدنيا معاملة المسلم، وبوصفه كافر في عمله وفعله يعامَل في الآخرة معاملة الكافر!.. ولهذا نرى أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) سأله أحد الشباب:-

-هل يكذب المؤمن؟.. فقال:-

﴿ لاَ ﴾.. ثم قرأ هذه الآية ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي عَلَى الكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾

ولهذا يقول للكاذب: الويل، كما في هذه الآية من سورة الطور،آية/11:-

﴿فَوَيلٌ يَوْمَئِذٍ لِلمُكَذِّبِينَ الّذِينَ هُمْ فِي خَوضٍ يَلْعَبُونَ يومَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾

فلسانه دائماً للكذب وقلبه مع اللهو ولا يحسِب لله حساباً.. وتأكيداً لموضوع اللسان وعلاقته بالإيمان نرى أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) عندما سأله أحد الشباب:-

-أيكون المؤمن جباناً؟

قال:-﴿نعم﴾

قال:-ويكون بخيلاً؟

قال:-﴿نعم﴾

قال:-ويكون كذاباً؟

قال:-﴿لاَ﴾

هذا يعني أنّ المؤمن لابد أن يلتفت إلى كلامه وأن لا يصدر منه ما هو كذب وافتراء..

والكذب أنواع، فمن أنواعه:-

-اليمين الكاذبة والنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول:-

﴿إيَّاكم واليمين الفاجرة، فإنّها تَدَعُ الديار من أهلها بلاقع ﴾

ويقول كذلك:-

﴿إنَّ اليمين الكاذبة وقطيعة الرَحِم تذَرَان الديار بلاقع من أهلها وأنّ انقطاع الرحِم انقطاع النسل ﴾

-شهادة الزور ويقول النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في ذلك:-

﴿أيُّها الناس: عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله ﴾ ثم قرأ قوله تعالى في سورة الحج، آية/30:-

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَولَ الزُّورِ ﴾

-خُلْف الوعد، وقد قال النبي فيه:-

﴿مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليَفِ إذا وَعَدَ ﴾

-البُهتان، وهو من أبشع أنواع الكذب، والبُهتان هو أن تقول في مسلم ما لم يكن فيه اتهاماً له وتجنّياً عليه، تريد أن تتهمه بشيء في دينه أو في علمه أو في خُلُقه أو في سلوكه أو في إيمانه أو في عمله حتى تنال منه، هذا هو البُهتان والله ﷻ يقول في سورة النساء، آية/112:-

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَو إِثْمَاً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئَاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْمَاً مُبِيناً﴾

فلا يجوز للإنسان أن يتّهم أو يدين غيره بشيء إلاّ أن يكون على يقين واضح جليٍّ بما يقول كالشمس وضوحاً وإلاّ فلا يجوز له ذلك..

أما أن يتّهم مؤمناً مسلماً بأي صفة من صفاته، بخُلُقه، بعلمه، بسلوكه، بدينه بلا دليل، فذلك من أعظم المحرّمات، ولهذا نرى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول:-

﴿مَن بَهَت مؤمناً أو قال فيه ما ليس فيه، أقامه الله على تلٍ من نار، حتى يخرج ما قاله فيه ﴾

فكيف إذا كنت الذي بَهَتَّه واتَّهمته من المؤمنين، من الأخيار الوَرِعين، من الأتقياء، من العلماء والصالحين والمجتهدين؟!..

يكون عقابه على تلٍّ من نار، وقد ذكر الله هذا النوع من الكذب وحذّر ممارسيه في القرآن حيث قال في سورة الحجرات، آية/6:-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾

فلا يجوز الإستماع إلى هذا النوع من الناس وإلى كذبهم وبهتانهم..

ومن أنواع الكذب البشعة المحرمة:-

-الرياء، وذلك بأن يقول شيئاً أو يعمل شيئاً أو يذكر كلمة يُظهر من خلالها الدين والإيمان، ولكنّه يقصد بها غير الله ﷻ ولا يقصد الله ولهذا يقول تعالى في سورة النساء، آية/141:-

﴿يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾

فقولهم وعملهم ليس لوجه الله وإنّما للناس.

-النفاق، وذلك بأن يُظهر للآخرين بكلامه ما ليس في قلبه ولا في داخله وضميره

والله ﷻ يقول في سورة النساء، آية/145:-

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرَاً ﴾

وقد توسّعنا في هذا الموضوع في كتاب (المنافقون في القرآن) وكتاب (اللسان بين الجنة والنار)..

ومن أبشع آفات اللسان:-

-الغيبة..

-النميمة..

وتعريف الغيبة كما وَرَدَ عن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) عندما سُئِل عنها قال:-

﴿الغيبة ذِكرُك أخاك بما يكره ﴾

قيل له:-يا رسول الله، إن كان في أخي ما أقول؟

قال (صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿إنْ كان في أخيك ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّهُ﴾

والغيبة من أعظم الآثام وأخطر الجرائم وأخسِّ الصفات، وقد قال فيها أحد علماء الأخلاق:-

((الغيبة أذمُّ الأفعال مقصداً، وأخبث الأقوال معتقداً، وأسوء الأخلاق مذهباً، وأصعب الأحوال مركباً))

فلابد أن يكون قصد الغيبة هو النيل من الآخرين، هو الطعن في الآخرين لمرض في نفس المتكلِّم، ولهذا يقول:- ((الغيبة أذمُّ الأفعال مقصداً))

لأنّ قلبه ليس بسليم ولا مرتبط مع الله ﷻ، فيريد الطعن بالآخرين.. ((وأخبث الأقوال معتقداً)) لأنّه اعتقد بشيء خبيث وقال شيئاً خبيثاً.. ((وأسوء الأخلاق مذهباً)) بكل اتجاهاته في الحياة وسلوكه فيها، فالمغتاب اتّخذ سلوكاً سيئاً وطريقاً سيئاً.. ((وأصعب الأحوال مركباً)) كما يتكلَّم على الآخرين، سيُتكَلَّم عليه.. وكما يطعن بالآخرين، سيُطعَن به، فلماذا لم يتقِ الله؟.. ولماذا لم يحاسِب نفسه ويحاسب لسانه؟.. والله ﷻ يقول في سورة الحجرات، آية/12:-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرَاً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعَضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَسُّوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضَاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتَاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾

خطاب للمؤمنين المتوجّهين إلى الله، أن يحفظوا مشاعرهم بأن يجتنبوا الظنّ بالسوء وأن لا يظنّوا بالمؤمنين ولا بالعلماء سوءاً وكذلك المجتهدين، وبعد تنقية النفس وتنقية الفكر والضمير يقول لهم:-

﴿وَلاَ تَجَسَسُّوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضَاً﴾

ويعبِّر عن موضوع الغيبة بقوله:-

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتَاً ﴾

فكأنّك تأكل لحمه!.. ولهذا يقول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام):-

﴿الغيبة جَهدُ العاجز ﴾

الغير مرتبط مع الله لأنّ المرتبط مع الله كله قوة وإيمان وثبات، كله صبر وثبات ويقين وثقة..

أما العاجز البعيد عن الله، يكون جهده الغيبة، عمله الغيبة، قوله الغيبة!.. حين يطعن بالآخرين يتصوّر أنّه يستفيد بشيء، والله (تعالى) يقول في سورة النساء، آية/**148**:-

﴿لاَ يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بِالسُوءِ مِنَ القَولِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعَاً عَلِيمَاً﴾

فلماذا تجهر بالسوء بقولك على الآخرين وعلى المؤمنين والورِعين الأتقياء ونرى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) عندما سُئِل عنها قال:-

﴿الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الآكلة في جوفه ﴾

تذهب بدينك، تذهب بورعك..

ويقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضاً:-

﴿مَن روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروءته ليسقط من أعين الناس، أخرجه الله (عز وجل) من ولايته إلى ولاية الشيطان﴾

فعندما تستغيب مؤمناً أو أحد العلماء أو أحد المجتهدين تريد بهذه الغيبة شينه وإسقاطه من أعين الناس، تكون النتيجة: ﴿أخرجه الله (عز وجل) من ولايته إلى ولاية الشيطان ﴾

فانظر ماذا تقول؟.. وانظر ماذا تتكلم؟.. ولهذا ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿يؤتى بأحدكم يوم القيامة فيقف بين يدي الله ويُدفع إليه كتابه، فلا يرى حسناته، فيقول: إلهي ليس هذا كتابي، فإنّي لا أرى فيه طاعتي، فيقول له: إنَّ ربّك لا يضل ولا ينسى، ذهبَ عملك باغتياب الناس، ثم يؤتى بآخر ويُدفع إليه الكتاب، فيرى فيه طاعات كثيرة، فيقول: إلهي ما هذا كتابي، فإنّي ما عملتُ هذه الطاعات، فيقول له: إنَّ فلاناً قد اغتابك، فرفعت حسناته إليك﴾

هكذا الغيبة تجعل الأعمال قاعاً صفصفاً!.. تذرها قاعاً، تأتي على الحسنات وتأكلها، أعمالك الصالحة كلها تذهب لأنّك طعنتَ بالآخرين، لأنّك طعنتَ بالمؤمنين المسلمين والعلماء المجتهدين...

النميمة:- وهي نَقْل الأحاديث بين الناس يُراد بها جَعْل الفتنة بينهم وتشويههم وجَعْل البغضاء والشحناء ما بين المؤمنين وبين المسلمين ولهذا فالله ﷻ ذمَّ النمّام في قوله تعالى في سورة القلم، آية/10-12:-

﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾

والزنيم هو الدعيّ، والدعيّ من لا يُعرف له نسب والذي يظهر من سياق الآية أنَّ النميمة من صفات الأدعياء ومن سجاياهم وكذلك اللقطاء ويقول تعالى في سورة الهمزة، آية/1:-

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾

والمقصود من الهُمزة هو النمّام، واللمزة هو المُغتاب ولهذا نرى الإمام جعفر الصادق عليه السلام يروي عن جده رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال للأمّة وللشباب بشكلٍ خاص:-

﴿ألا أُنبّئكم بشراركم ﴾

قالوا: بلى يا رسول الله..

قال (صلى الله عليه وآله وسلم):-

﴿المشّاؤون بالنميمة المُفرّقون بين الأحبة ﴾

فلماذا نكون من النمّامين؟.. ولماذا نكون من الذين يغتابون الناس ويأكلون لحومهم؟.. ولماذا نكون من شرار الناس ومن شرار بني آدم بالتفريق بين المؤمنين والتفريق بين الناس، وجَعْل الفتنة بين المؤمنين وبين الناس وطَعْن بعضهم ببعض، والكلام على هذا وذاك واغتياب هذا وتهمة ذاك، والكلام بما لا يعنيك والكلام فيما ليس فيه رضا الله ﷻ ولا رضا نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم) ولا الأئمة الأطهار(عليهم السلام).

والطعن بالآخرين سواءاً كانوا أئمة المذاهب الإسلامية أو العلماء أو المجتهدين، كل ذلك مما يسبب الفُرقة بين المؤمنين وبين الأحبّة وبين الصالحين، وعوَض هذا الكلام الذي تقوله في الطعن بهذا وذاك، تَوجَّه إلى الله، وقل الكلمة الطيبة، وقل الكلمة الصادقة، وقل الكلمة التي تجمع على حب الله وحب نبيِّهِ وحب القرآن وحب الأئمة الأطهار والصحابة الصالحين والسَلَف الصالح.

أليس هذا هو المفروض؟..

أليس هذا هو الواجب؟..

أليس هذا ما يُرضي الله ﷻ ؟..

أليس هذا ما يأمر به القرآن؟..

أليس هذا ما يأمر به النبي الكريم ؟..

أليس هذا ما يأمر به الأئمة الأطهار؟..

أليس هذا ما يأمر به الصحابة العِظام؟..

فإلامَ الهَذَيَان؟!.. وعلامَ الكلام؟!.. الكلام الزائد الذي لا فائدة منه إلاّ زرْع الفِتنة وزرْع البُغض والأحقاد والطعن في الآخرين، ومَن يفعل ذلك يكون مصداقاً لقوله تعالى في سورة النور، آية/19-21:-

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَيطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَيطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَلَولاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيكُمْ

وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدَاً وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

هذا هو النص القرآني وهذا هو الوعد الربّاني لمن يريد أن يُشيع الفاحشة بين المؤمنين، وكما قلنا أنّ الفاحشة هي ليست بعملٍ خارجي فحسب، فإنَّ الكلام من العمل كما نصَّ الحديث على ذلك، وكما ذكرناه في حديث سابق..

فكلامك من عملك، فعندما تقول، فهذا القول هو عمل ويُكتَب عليك ولو لم يكنْ من العمل لما جعل الله عليك مَلَكَين كما في سورة ق، آية/18:-

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاّ لَدَيهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

فهو من أعمالك، والله ﷻ يقول في سورة النور، آية/19-21:-

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

فعندما تتّهم أحداً وتكفِّر مسلماً وتفسِّق مسلماً وتتهجّم على الآخرين سواءاً كانوا إخواناً مسلمين أو من أئمّة المذاهب أو من العلماء أو من المجتهدين، فإنّك تكون ممن يحب أن تشيع الفاحشة بين الذين آمنوا وبين المسلمين ويكون كما قال الله ﷻ في عذاب هؤلاء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾.

أما في الدنيا، فلهم وَخزُ وعذاب الضمير وتأنيبه ولأنّ كلامهم يظهر بطلانه بعد حين، فينظر إليهم الآخرون نظرة احتقار وازدراء..

وأما في الآخرة، فلهم ما أعدّ الله ﷻ للكاذبين والمنافقين والمغتابين والنمّامين.

إذن تمسّكْ بالله ﷻ واجعل لسانك لله، قلْ خيراً أو اصمتْ.. وإنّ الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين يكونون حسب النص القرآني الشريف من الذين يتّبعون خطوات الشيطان، والله ﷻ يقول:-

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَيطَانِ﴾

فالله ﷻ يريد منا الإيمان الفكري والعملي، الإيمان الذي يتجسّد بالقول واللسان وأن تراقب الله ﷻ فيما تقول: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتَ الشَيطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ...﴾ بماذا؟.. ﴿يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ﴾، فإنّه يأمرك بالغيبة ويأمرك بالنميمة والتهمة والظنِّ السيئ والكلام على الآخرين وعلى المؤمنين وعلى العلماء وعلى المجتهدين، والشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر

والحرام والمعصية والضلال، يقول تعالى في سورة النور، آية/21:-

﴿وَلَولاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدَاً وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

فعند عدم رغبتك في تزكية شخص، فلا تطعن فيه واحترم الجميع.. لأنّ الله في صياغته الربّانية للإنسان جعله كله خير، قوله خير، عمله خير، ولهذا فإنّ الهدي النبوي يأمر المؤمن أن لا يحتقر أحداً من خَلْق الله، فلربما هذا الذي تحتقره ولي من أولياء الله!!.. فلماذا تتحمّل هذا الإثم وهذه المعصية؟.. وتكون من أتباع الشيطان بقولك، فتسير خلفه وتعمل الفحشاء والمنكر بهذا القول وأنت تحسب أنّك تُحسِن صنعاً!..

أين الوَرَع والتقوى؟..

أين الصلاح والاستقامة؟..

أين الخوف من الله؟..

أين مراقبة النفس واللسان؟..

إذن قل خيراً أو اصمت ولا تكن ممن كما في قوله تعالى في سورة النجم، آية/28:-

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئَاً﴾

وبهذا نكون قد تحدثنا عن الوجه الأول للآية الواعظة للشباب بقوله تعالى: ﴿وَاغضُضْ مِنْ صَوتِكَ ﴾ وقلنا لابد من معرفة مصدر الصوت وهو اللسان، وتحدثنا عن اللسان.. وفي هذا الوجه يكون معنى الآية هو:-

إقطع صوتك.. إلزم صوتك.. إمنع صوتك عن كل ما حرّم الله، عن كل فحشاء ومنكر، عن كل غيبة ونميمة، وعن كل سوء واستعمله بما يُرضي الله..

الوجه الثاني للآية الكريمة:-﴿وَاغضُضْ مِنْ صَوتِكَ﴾

هو الإعتدال في الصوت، الموازنة في الصوت، أي الحدّ الوسط، فليس الجهر الزائد مطلوب ولا الاخفات الزائد مطلوب، فكأنّ الآية تريد أن تُعطينا حُكماً خُلُقياً لما نقول وكيف نتكلم -(هذا بعد أن فرغنا من كون ما نقوله مشروعاً مُحلّلاً يرضي الله)-.

فإذا أردنا أن نتكلم، فلنتكلم بأدب وأخلاق مع الإلتفات إلى صيغة الكلام وأسلوبه

وطريقته، فلا يكون الكلام بصوت مرتفع مزعج للآخرين ولا يكون بدرجة من الانخفاض مزعجة كذلك للسامعين، فالمطلوب الإعتدال وهذا ضمن التأكيد القرآني حيث يقول تعالى في سورة الإسراء، آية/110:-

﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَينَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾

إنَّ الصلوات الواجب الجهر بها هي: المغرب والعشاء والفجر، فليكن الجهر طبيعياً ولا يتعدى حدوده، وعندما يجب الاخفات في بعض الصلوات كالظهرين، فليكن الاخفات كذلك طبيعياً ولا يكن الاخفات أكثر من حدّه، فلابد أن تسمع صوتك، لأنَّ الجهر والاخفات هما وصفان يتصف بهما الصوت.. المطلوب هو عدم الجهر الزائد وعدم الاخفات الزائد، هذا من معاني ﴿ وَاغضُضْ مِنْ صَوتِكَ﴾ هذا المعنى يؤكد معنى الإعتدال في الصوت ولهذا نرى الإمام الصادق(عليه السلام) يقول في معنى الآية:-﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا﴾:-

﴿الجهر بها رفْع الصوت والمُخافتة ما لم تسمع أذنيك، واقرأ قراءة بينهما﴾

فالجهر أن لا يكون الصوت مرتفعاً أكثر من الطبيعي، وفي المُخافتة والاخفات أن تسمع نفسك ولا يسمعك من هو في جنبك.. والإعتدال مطلوب بكل شيء، في الصوت وبكل التصرفات وفي الإنفاق كما في الآية الكريمة من سورة الإسراء، آية/29:-

﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾

كذلك المطلوب الإعتدال، هنا جعْل اليد مغلولة إلى العُنُق، كناية عن البخل وعدم الشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين وتجاه الفقراء المحتاجين والبؤساء والمحرومين.. إنّ هذا العمل غير جائز وهو حرام ولا تكن مبذّراً تضع الشيء في غير محله وتعطيه لغير أهله ولكن المطلوب ماذا؟.. فيقول تعالى في سورة الرعد، آية/8:-

﴿وَكُلَّ شَيءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾

فصوتك، فليخرج منك (من لسانك) بمقدار، ولما تقول بمقدار يعني:-

1-بمقدار: ملتفتاً لما تقول، قدِّر كلامك قبل أن تخرجه، قبل أن تنطقه وتتلفّظ به..

2-بمقدار يعني من حيث الصوت، علوُّه وانخفاضه -(فليكن بمقدار)- يعني بالمستوى الطبيعي، بالمستوى المعتدل لا زائد ولا ناقص، هذا هو القانون الإلهي ويقول تعالى في سورة الفرقان، آية/67:-

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامَاً﴾

هذا ليس في المال فحسب!.. وإنّما في كل شيء ومنه الكلام ومن الصوت!.. فعندما تنفق كلامك وقولك وعلمك وأخلاقك لابد أن تكون موازناً وملتفتاً إلى هذه الموازنة من حيث العطاء ودرجة الصوت والكلام، فلا إفراط ولا تفريط وإنّما الإعتدال، وإنّما الميزان والموازنة ويقول تعالى في سورة الرحمان، آية/9:-

﴿وَأَقِيمُوا الوَزَنَ بِالقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا المِيزَانَ﴾

الموازنة مطلوبة.. الإعتدال مطلوب.. ويقول تعالى في سورة لقمان، آية/19:-

﴿وَاغضُضْ مِنْ صَوتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصوَاتِ لَصَوتُ الحَمِيرِ﴾

وبهذا التشبيه يتبيّن أنّ الذي يقول من دون أن يحاسب قوله، والذي يتكلّم من دون أن يلتفت لكلامه بغيبة ونميمة وبهتان واتهام وإشاعة الفحشاء بين الذين آمنوا يمثّله الله ﷻ بالحمار!!.. فبما أنّ الحمار لا عقل له ولا إرادة، كذلك الإنسان الذي لا يتورّع فيما يقول ولا يجعل الله ﷻ بين عينيه في قوله وكلمته، متّهماً للآخرين، يكون صوته كصوت الحمار!.. ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ لأنّ الحمار لا عقل له حتى يُحاسَب عليه بينما الإنسان له عقل وإرادة كما قال تعالى في سورة الفرقان، آية/44:-

﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾

هذا على الوجه الأول وعلى الوجه الثاني الذي لا يُحسن كلامه وأسلوب حديثه وأسلوب منطقه، فيكون مزعجاً للآخرين، يكون صوته كصوت الحمار.. وهذا من أروع ما يكون في التربية والتربية الإجتماعية!.. إنّ الله ﷻ يريد منا عندما نتكلّم، لابد أن يكون الكلام جيداً وموزوناً منه وإليه، ولابد أن يكون الكلام مؤثّراً بالآخرين ومفيداً لهم.. فعندما تكون الكلمة من ناحية خارجية غير مريحة للسامع، فإنّه يتأثّر بها وينْزعج منها، وإن كانت كلمة مصيبة، فإنّها كلمة مفيدة مريحة للسامع.. فالمطلوب هو أن نجمع بين الإثنين، أن نجمع بين الكلمة الصادقة التي لله فيها رضا، وبين أن ننطقها ونقولها بشكل محبّب وقريب

للآخرين، من أنفسهم وعقولهم وأرواحهم حتى تكون:-

-صادرة من واعظ متّعظ..

-صادرة من قلب متعلّق بالله حتى تكون مؤثّرة وتدخل إلى القلب.. لأنّ ما يخرج من القلب يدخل إلى القلب وما خرج من اللسان فلا يتعدّى الآذان..

الخـاتمـة

لقد وضعت التربية القرآنية للشباب عن طريق وصية لقمان لإبنه النقاط الآتية:-

1-غرست الإيمان باللهﷻ وعدم الشرك..

2-إنتقلت إلى جانب عملي مهم ووصّت الإنسان بوالديه..

3-رجعت إلى أصلٍ عقائديٍ مهمٍّ جداً وهو مسألة الآخرة وأنّ الإنسان لابد أن يحسب حساباً كاملاً للآخرة بقولهﷻ: ﴿إِلَيَّ المَصِيرُ﴾ يعني لابد أن تعودوا إلي حتى ترون أعمالكم كما في آية أخرى في سورة الزلزلة، آية/7-8:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذرَّةٍ خَيْرَاً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرَّاً يَرَهُ﴾

4-ثم أكّدت الآيات الواعظة مسألة القدوة واتّباع سبيل مَن أناب إلى اللهﷻ وتوجّه إليه، وأنّ اللهﷻ بيده كل شيء وبيده ملكوت السماوات والأرض..

وكيف أنّ هذه الآيات مملوءة بالحنان والعطف والرعاية والمحبة للشباب بل والتودد لأنّها تبتدئ بكلمة ﴿يَا بُنَيَّ﴾ وكلمة ﴿يَا بُنَيَّ﴾ تجمع كل هذه المفاهيم..

5-وبعد ذلك تلتفت الآيات الواعظة إلى مسألة الصلاة وإقامة الصلاة ومفهوم الإقامة وبعدها إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبعدها إلى الصبر كما في الآية الكريمة:-

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴾

وهكذا أخذت تتسلسل في تربية الشباب إيماناً وسلوكاً، فكراً وعملاً، جوانب عقائدية وجوانب عبادية وجوانب أخلاقية كما في قوله تعالى:-

﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ للنَّاسِ ﴾

وعالجت مسألة التكبر الموجود في الشباب وتكملة الآية:-

﴿وَلا تَمشِ فِي الأَرْضِ مَرَحَاً إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

وأكّدنا على هذه المحطات في حديثنا وبعد ذلك أعطت الآية التوجيه الإلهي في مسألة السير في قوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشيِكَ ﴾ هنا نريد أن نربط هذه الآيات مع بدايتها، فكانت البداية:-

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ أَنِ اشكُرْ لِلهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُر لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

تريد أن تقول الآيات إلى الشباب الأعزّاء:-

-هذا هو المطلوب منكم كعبيد لله ﷻ..

-هذا هو المطلوب منكم كمؤمنين بالله ﷻ بعد العبودية..

-هذا هو المطلوب منكم كمحبين لله..

-هذا هو المطلوب منكم كطائعين لله..

-هذا هو المطلوب منكم كخائفين من الله وراجين الله..

-هذا هو المنهج الربّاني لكم لأن تكونوا عبيداً لله ﷻ وحده..

-هذا هو المنهج الربّاني لكم لأن تكونوا خلفاءاً لله ﷻ في الأرض..

وهذا المنهج الذي جعله الله ﷻ لكم على قاعدة:-

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهوَ يَهْدِينِ﴾

هو هداية لكم وهو خير لكم وهو سعادة لكم وهو نعمة ورحمة لكم..